ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٣ ، السنـــــة : ٥١

ربيع الأول ١٤٤٨هـ ، أغسطس – سبتمبر ٢٠٢٦م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٦٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- بين الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة المنورة — التحرير — ٣

كلمة العدد

- نبي الرحمة — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ١٠

دراسات إسلامية

- من صور الحوار في سورة الكهف — الأستاذ عبد الغني أحمد ناجي — ١٦
- من الإعجاز البياني في القرآن الكريم — رئيس التحرير — ٢٤
- الهجرة فاتحة عهد جديد — الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف — ٣٠
- دروس مستفادة من الهجرة — الأستاذ محمود مصطفى الأعصر — ٣٥
- التسامح في التصور الإسلامي — الدكتور أمان قحيف — ٣٩
- رجولة الرسول — فضيلة الشيخ أحمد فهمي أبوسنة — ٤٥
- التعامل مع الوعود الربانية بين التصديق والتضييق — الدكتور محمد علي يوسف — ٤٧
- سنة الزوجيَّة بين إعجاز الإشارات القرآنية وروعة الحقائق العلميَّة — الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي — ٥١

إشراقة

- القلم سلاح ذو حدين — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

كلمة المحرر

بين الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة المنورة

قضى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون في مكة المكرمة أعوامًا يلاقون الألاقي و الويلات والمتاعب في أنفسهم وأموالهم وأهليهم، ويصبرون عليها صبر الجمال، ويثبتون على دينهم ثبوت الجبال الراسيات، حتى ضاقت عليهم أرض مكة وخافوا على دينهم، فأذن لهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهجرة إلى الحبشة، فهاجروا – ومعظمهم رجال وقليل منهم نساء- إلى الحبشة هجرتين، وعاد منها من عاد لخبر تبين كذبه لهم فيما بعدُ. ثم أُرِي النبي ﷺ دارَ هجرتهم في منامه، وأنها أرض ذات نخل بين لابتين، فأسرَّ بها إلى أصحابه المثقلين بقيود أهل مكة.

وهنا يطرح السؤال نفسه: هل بين الهجرتين من فرق؟ وهل الهجرة إلى الحبشة كانت مثل الهجرة إلى المدينة المنورة في الفضل والحكم الشرعي؟

والجواب عنه أن المتأمل في الهجرتين يرى بوضوح أن الأولى- وهي الهجرة إلى الحبشة- كانت هجرة أمان موقتة فرارًا بالدين، وبحثٍ عن ملاذ آمن يعبدون الله تعالى فيه بحرية؛ وحماية للمستضعفين من المؤمنين، ومن ثم لم يؤذن بها إلا لهم- للمستضعفين منهم-، حيث شق عليهم الحفاظ على دينهم والذود عن أنفسهم. وذلك حين رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يعانيه أصحابه من البلاء والمحن التي لاتعرف لها نهاية، ولايقدر على أن ينجيهم مما هم فيه، فقال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإنّ بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه». فخرج بعض أصحابه مخافة الفتنة وهروبًا بدينهم. ومن هنا لم يسمح للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهجرة إليها. فكانت الهجرة إليها رخصة، فلم ينزل عتاب على من تخلف عنها، وأما الهجرة إلى المدينة المنورة فلم تكن رخصة؛ بل عزيمة وبهدف نصر الدين وتعزيزه، والوقوف بجانب النبي ﷺ وإقامة المجتمع الإسلامي.

هذا إلى أن الهجرة إلى المدينة المنورة إذا كانت تشكل مغامرة بالنفس ومخاطرة بالحياة، فإن الهجرة إلى الحبشة كانت تمثل إنقاذًا للحياة. وإذا كانت الأولى تهدف إلى تقوية الدين ونصره والدعوة إليه ونشره، فإن الثانية كانت ترمي إلى محافظة المهاجر على صلاته وصومه هو. وإذا كانت الأولى هدفها الوقوف إلى جانب رسول الله ﷺ، فإن الثانية كانت مفارقة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن أجل ذلك نزل العتاب على من تخلف عن الهجرة إلى المدينة المنورة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٩٧-٩٨]، ولم ينزل مثله على من تخلف عن الهجرة إلى الحبشة. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة التاسعة ليلا من يوم الثلاثاء: ١٤٤٧/١٢/٢٩=٢٠٢٦/٦/١٦م)

نبي الرحمة

بعث الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ رحمةً للعالمين، فليس رحمةً لأتباعه وحدهم أو للإنس وحدهم؛ بل رحمة للعالمين جميعًا، يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وكيف كان النبي ﷺ رحمةً للعالمين؟ قال الرازي في تفسيره: إنه عليه السلام كان رحمةً في الدين وفي الدنيا، أما في الدين فلأنه عليه السلام بعث والناس في جاهلية وضلالة، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم، فبعث الله تعالى محمدًا ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحق وبيَّن لهم سبيل الثواب، وشرع لهم الأحكام وميَّز الحلال من الحرام، ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق فلا يركن إلى التقليد ولا إلى العناد والاستكبار، وكان التوفيق قرينًا له، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ إِلَى قَوۡلِهِۦ: وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ [فُصِّلَتْ:٤٤]. وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه.

وهنا يطرح السؤال نفسه: كيف كان النبي ﷺ رحمة لغير المسلمين؟ فأجاب عنه أبوالقاسم، محمد ابن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى:٧٤١هـ) في تفسيره «التسهيل لعلوم التنزيل» (٢/ ٣١) فقال: الجواب من وجهين: أحدهما أنهم كانوا معرضين للرحمة به لو آمنوا، فهم الذين تركوا الرحمة بعد تعريضها لهم، والآخر أنهم رحموا به لكونهم لم يعاقبوا بمثل ما عوقب به الكفار المتقدّمون من الطوفان والصيحة وشبه ذلك».

وقال البقاعي إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر (المتوفى:٨٨٥هـ) في نظم الدرر في الجواب عنه: «﴿رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ كلهم، أهل السماوات وأهل الأرض من الجن والإنس وغيرهم، طائعهم بالثواب، وعاصيهم بتأخير العقاب، الذي كنا نستأصل به الأمم، فنحن نمهلهم ونترفق بهم، إظهارًا لشرفك وإعلاء لقدرك، حتى نبين أنهم مع كثرتهم وقوتهم وشوكتهم و شدة تمالئهم عليك لايصلون إلى ما يريدون منك، ثم نرد كثيرًا منهم إلى دينك، ونجعلهم من أكابر أنصارك

وأعـاظم أعوانـك، بعـد طـول ارتكـابهم الـضلال، وارتباكهم في أشراك المحال، وإيضاعهم في الجدال والمحال، فيعلم قطعًا أنه لا ناصر لك إلا الله الذي يعلم القول في السماء والأرض، ومن أعظم ما يظهر فيـه هـذا الـشرف في عمـوم الرحمـة وقـت الـشفاعة العظمـى يـوم يجمـع الأولـون والآخـرون، وتقـوم الملائكة صفوفًا والثقلان وسطهم، ويموج بعضهم في بعض من شدة ما هم فيه، يطلبون من يشفع لهم في أن يحاسبوا؛ ليستريحوا من ذلك الكرب إما إلى جنة أو نار، فيقصدون أكابر الأنبياء نبيًا نبيًا عليهم الصلاة والسلام، والتحية والإكرام، فيحيل بعضهم على بعض، وكل منهم يقول: لست لها، حتى يأتوه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقـول: أنـا لهـا، ويقـوم ومعـه لـواء الحمد فيشفعه الله وهو المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون».

وقال الآلوسي (المتوفى ١٢٧٠هـ) في تفسيره: «والذي أختاره أنه ﷺ إنما بعث رحمة لكل فرد فرد من العالمين: ملائكتهم وإنسهم وجنهم، ولا فرق بين المؤمن والكافر من الإنس والجن في ذلك، والرحمة متفاوتة ولبعض من العالمين المعلى والرقيب منها، وما يرى أنه ليس من الرحمة فهو إما منها في النظر الـدقيق أو لـيس مقـصودا بالقـصد الأولي كـسائر الشرور الواقعة في العالم بناء على ما حقق في محله أن الشر ليس داخلا في قضاء الله تعالى بالذات، ومما هو ظاهر في عموم العالمين الكفار ما أخرج مسلم عن أبي هريـرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قـال: قيـل: يـا رسـول الله، ادع عـلى المشركين قال: «إني لم أبعث لعانًا وإنما بعثت رحمةً».

وقال العلامة أشرف علي التهانوي رحمه الله (١٢٨٠-١٣٦٢هـ/١٨٦٣-١٩٤٣م): «ومـــــن عموم رحمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه الأمة رفع عنها أشد أنواع العذاب الذي نزل على الأمم السابقة، فجعـل مـنهم قـردة وخنـازير، وقلـب عـلى بعـضها الأرض فجعل عاليها سافلها وأمطر على بعضها الحجارة. فكان هذا الرفع من بركة النبي ﷺ، فلا ينـزل عـلى كفـار هـذه الأمـة أمثالهـا مـن العـذاب، فسميت هذه الرحمة عامةً؛ لأنها تشمل الكفار أيضًا. ومن عموم هذه الرحمة أن من عمل من أمته حسنة كان له من الأجر عشر أمثالها، ويتضاعف أجره – إن ازداد إخلاصًـا- إلى سـبع مئـة فـصاعدًا. ومـن عموم هذه الرحمة أن الكافر حين يسلم فإن له ما كسب من الحسنات قبل إسلامه، ففي الحديث: «أسـلمت عـلى مـا أسـلفت» (رواه مـسلم بـرقم: ١٩٤). فتتضاعف الحسنات بذلك. فكانت هذه الرحمة شاملة للكفار أيضًا. ومن عموم رحمته أن الله تعالى أنه لم ينزل على هذه الأمة الأحكام الشاقة التي نزلت على الأمم السابقة، فمثلًا كانت التوبة من

المعصية أن يضحي بنفسه، ولا توبة بدونه. ووجب قطع الثوب إن أصابه نجاسة، فهذه الشريعة ليست أحكامها شاقة جدًّا يشق العمل بها ولا بسيطة جدًّا لايتطلب شيئًا. وهنا يطرح السؤال نفسه: هب أنه ثبت كونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمة للناس جميعًا في الدنيا، فما رحمته بالكفار في الآخرة؟ فإنهم خالدون مخلدون في النار، فكيف تظهر رحمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حقهم؟ والجواب عنه يتطلب مقدمة تكشف معرفتها مدى رحمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالكفار في الآخرة. وهي أنه لو قضي على من أتى جريمة كبرى بالسجن عشرين سنة، ثم إن حاكم البلاد عفا عنه عقوبة عشر سنوات، أفليس هذا من الرحمة؟ وكذلك إذا استحق الجاني مثلًا عقوبة شاقة جدًّا، فخفف عنه بعضها أفليس ذلك من الرحمة؟ فالوجهان من غير شك يدخلان في الرحمة. فاعلم أن عصاة المسلمين الذين يدخلون النار، كانت مدة عقوبتهم أكثر لو لم يشفع لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان تخفيف المدة هذا من الرحمة. مثلًا استحق أحدهم العقوبة ألف سنة، ثم شفع له النبي ﷺ فخفف عنه مدة العقوبة، فخرج من النار بعد خمس مئة عام، فلاشك أنه رحمة به. وأما الكفار فليس لهم ذلك، بأن يخفف عنهم مدة العقوبة، فإنهم خالدون مخلدون في النار للأبد، ولكن كما يقول الشيخ عبد الحق المحدث ثبت تخفيف العذاب عن الكافر ببركة النبي ﷺ كما في الصحاح، فقد قال بعض الصحابة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هل تغني أبا طالب؟ فقال: لو لا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار، وهو في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منهما دماغه».

ويقول العلامة شبير أحمد العثماني (١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م) في تفسير الآية: «أي بعث النبي ﷺ رحمةً للعالمين، وأما الشقي الذي أعرض عن الانتفاع برحمته، فهو تقصير منه، وهذه الشمس يعم نورها وحرارتها الناس جميعًا، وأما أن يغلق المرء على نفسه الأبواب والمنافذ كلها فهو جنون منه، ولايخل ذلك بعموم فائدة الشمس ونفعها. وقد اتسع هنا نطاق الرحمة كثيرًا حتى الشقي الذي أعرض عن الانتفاع بهذه القسمة، يصل إليه بعض الرحمة من غير اختيار بدرجة أو بأخرى، وعلوم النبوة ومبادئ الحضارة والثقافة في العالم يستفيد منها المسلم والكافر كل حسب مذاقه، ثم إن الله تعالى وعد أنه يحفظ كفار هذه الأمة - على خلاف كفار الأمم السابقة- من عذاب الاستيصال العام، ولايسلطه عليهم. وأقول: إن الكفار الذين قاتلهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - علاوة على عموم أخلاقه وشيمه- كان في مجموعه رحمة لهذا العالم؛ لأنه يحفظ النعمة الكبرى التي جاء بها النبي ﷺ،

وتسرب نور الإيمان إلى كثير من العيون التي كان أصحابها يأبون أن يصلحوا ما فيها من رمد.

ويقول المفتي محمد شفيع رحمه الله (١٣١٤-١٣٩٦هـ/١٨٩٧-١٩٧٦م) في «معارف القرآن» في تفسير هذه الآية: «العالمين جمع عالم، ويدخل فيه جميع الخلق من الإنس والجن والحيوانات والنباتات والجمادات. وكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمةً لجميع الخلق يرجع إلى أن الروح الحقيقية للكون كله ذكرُ الله تعالى وعبادته، فإذا خرجت هذه الروح من الأرض، ولم يبق عليه من يقول: الله، الله، مات الخلق كله، أي يقوم عليه القيامة. وحيث تبين أن الروح في هذه الأشياء كلها هو ذكر الله تعالى وعبادته تبين تلقائيًا أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمة للخلق كله، فإنه يستمر ذكر الله تعالى وعبادته في هذه الدنيا إلى يوم القيامة ببركته ﷺ وتوجيهاته. ولذا قال النبي ﷺ: «أنا رحمة مهداة» (أخرجه ابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه)، وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنا رحمة مهداة بعثت برفع قوم ووضع آخرين» (ابن عساكر عن ابن عمر، تفسير ابن كثير).

ويقول الشيخ محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى:١٣٩٤هـ) في تفسيره في بيان هذه الرحمة: «أي أن رسالة محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مقصورة على أن تكون رحمة للعالمين، أي لكل العقلاء، ورحمته -ﷺ- في أنه بعث على فترة من الرسل؛ لإنقاذ الناس من الأوهام التي أركسوا فيها، وصاروا بها في عمياء ضاربة عليهم لَا يدركون معها حقا من باطل، وأنهم كانوا يتسافكون الدماء، وقد أكلت العداوة كل معاني الخير في فطرهم، واشتفت كل ينابيع المودة في صدورهم، وكان -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رحمة بشريعته التي دونت في القرآن وبينتها السنة النبوية المطهرة بلسانه وعمله وإقراره حتى ترك الناس على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها، ولقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، وقد جاءت هذه الشريعة مشتملة على مصالح العباد، فكل ما فيها مصلحة، واستغرقت كل المصالح بالعبارة، وبالإشارة، وبوضع أصول كل نفع إنساني، والله رءوف بالعباد».

وذكر محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور التونسي (المتوفى:١٣٩٣هـ) مظهرين لهذه الرحمة التي وصف بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال في تفسير هذه الآية: «و وقوع الوصف مصدرًا يفيد المبالغة في هذا الاتحاد بحيث تكون الرحمة صفة متمكنة من إرساله، ويدل لهذا المعنى ما أشار إلى

شرحه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «إنما أنا رحمة مهداة». و تفصيل ذلك يظهر في مظهرين: الأول تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة، والثاني إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته. فأما المظهر الأول فقد قال فيه أبو بكر محمد بن طاهر القيسي الإشبيلي- أحد تلاميذ أبي علي الغساني وممن أجاز لهم أبو الوليد الباجي من رجال القرن الخامس-: «زين الله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزينة الرحمة فكان كونه رحمة وجميع شمائله رحمة وصفاته رحمة على الخلق» اه. وذكره عنه عياض في «الشفاء». قلت: يعني أن محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فطر على خلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة لتتكون مناسبة بين روحه الزكية وبين ما يلقى إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة حتى يكون تلقيه الشريعة عن انشراح نفس أن يجد ما يوحى به إليه ملائمًا رغبته وخلقه. قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان خلقه القرآن». ولهذا خص الله محمدا ﷺ في هذه السورة بوصف الرحمة ولم يصف به غيره من الأنبياء، وكذلك في القرآن كله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩] أي برحمة جبلك عليها وفطرك بها فكنت لهم لينا. وفي حديث مسلم: أن رسول الله لما شج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه فقالوا: لو دعوت عليهم فقال: «إني لم أبعث لعانًا وإنما بعثت رحمةً». وأما المظهر الثاني من مظاهر كونه رحمةً للعالمين فهو مظهر تصاريف شريعته، أي ما فيها من مقومات الرحمة العامة للخلق كلهم؛ لأن قوله تعالى: (للعالمين) متعلق بقوله: (رحمة). والتعريف في (للعالمين) لاستغراق كل ما يصدق عليه اسم العالم. والعالم: الصنف من أصناف ذوي العلم، أي الإنسان، أو النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة ... فإن أريد أصناف ذوي العلم فمعنى كون الشريعة المحمدية منحصرة في الرحمة أنها أوسع الشرائع رحمة بالناس؛ فإن الشرائع السالفة وإن كانت مملوءة برحمة إلا أن الرحمة فيها غير عامة، إما لأنها لاتتعلق بجميع أحوال المكلفين، فالحنيفية شريعة إبراهيم عليه السلام كانت رحمة خاصة بحالة الشخص في نفسه، وليس فيها تشريع عام، وشريعة عيسى عليه السلام قريبة منها في ذلك، وإما لأنها قد تشتمل في غير القليل من أحكامها على شدة اقتضتها حكمة الله في سياسة الأمم المشروعة، هي لها مثل شريعة التوراة، فإنها أوسع الشرائع السالفة لتعلقها بأكثر أحوال الأفراد والجماعات، وهي رحمة كما وصفها الله بذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا

مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٥٤]، فإن كثيرًا من عقوبات أمتها جعلت في فرض أعمال شاقة على الأمة بفروض شاقة مستمرة، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:١٦٠] وقال: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٥٤] إلى آيات كثيرة. لا جرم أن الله تعالى خص الشريعة الإسلامية بوصف الرحمة الكاملة. وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى فيما حكاه خطابًا منه لموسى عليه السلام: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧] الآية. ففي قوله تعالى: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ إشارة إلى أن المراد رحمة هي عامة فامتازت شريعة الإسلام بأن الرحمة ملازمة للناس بها في سائر أحوالهم، وأنها حاصلة بها لجميع الناس لا لأمة خاصة. وحكمة تمييز شريعة الإسلام بهذه المزية أن أحوال النفوس البشرية مضت عليها عصور وأطوار تهيأت بتطوراتها لأن تُساس بالرحمة وأن تدفع عنها المشقة إلا بمقادير ضرورية لا تقام المصالح بدونها، فما في الشرائع السالفة من اختلاط الرحمة بالشدة وما في شريعة الإسلام من تمحض الرحمة لم يجر في زمن من الأزمان إلا على مقتضى الحكمة، ولكن الله أسعد هذه الشريعة والذي جاء بها والأمة المتبعة لها بمصادفتها للزمن والطور الذي اقتضت حكمة الله في سياسة البشر أن يكون التشريع لهم تشريع رحمة إلى انقضاء العالم... وأما رحمة الإسلام بالأمم غير المسلمين فإنما نعني به رحمته بالأمم الداخلة تحت سلطانه وهم أهل الذمة. ورحمته بهم عدم إكراههم على مفارقة أديانهم، وإجراء العدل بينهم في الأحكام بحيث لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم في الحقوق العامة. هذا وإن أريد بالعالمين في قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ النوع من أنواع المخلوقات ذات الحياة، فإن الشريعة تتعلق بأحوال الحيوان في معاملة الإنسان إياه وانتفاعه به؛ إذ هو مخلوق لأجل الإنسان، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩] وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:٥-٧]. وقد أذنت الشريعة الإسلامية للناس في الانتفاع بما ينتفع به من الحيوان ولم تأذن في غير ذلك».

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

من ظلال التفسير

(١٠- سورة يونس ٣١-٤٧)

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾

ينزل المطر من السماء، وتنشأ الحرارة من الشمس وغيرها فيختلط بها مواد الأرض، فيخرج للإنسان رزقه.

فائدة ١:

أي من يخلق الأذن والعين هذا الخلق العجيب المحير للعقول؟ ثم يهيئ أسباب حفظها؟ وهو الذي يملك جميع القوى البشرية هذه حق الملك، فيعطيه متى يشاء ويسلبه متى يشاء.

فائدة ٢:

مثلا: يخرج الحي من النطفة أو البيضة، ثم يخرج من النطفة والبيضة الحيوان، أو يخرج أناسًا أحياء القلوب في شخص أو أمة ماتت روحانيا ومعنويا، ويسلط على أخلاف الأمم الحية الموت لشقائها.

فائدة:

أي ينظم ويدبر أمور الدنيا كلها.

فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾

وكان المشركون يعترفون بأن هذه الأمور الكلية والعظيمة لايقدر عليها إلا الله تعالى، فنبههم على أنكم مادمتم تقرون بأن الخالق والمالك الحقيقي ومدير العالم كله هو سبحانه وتعالى، فما لكم لاتخافون حين تتخذون غيره إلهًا، فإن الأحق بالألوهية هو خالق الكل ومالك الملك والرب المطلق والمتصرف المطلق. فأنى ترجعون على أعقابكم بعد الاعتراف بذلك. وحيث ليس غيره صادقا فماذا بعد الصدق؟ وليس للعاقل أن يتخبط

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

في الأوهام الباطلة معرضًا عن الحق.

كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

أي لم يكتب الله تعالى الإيمان من الأزل لهؤلاء الطغاة المردة، والسبب وراء ذلك طغيانهم وعصيانهم في علم الله تعالى. فصدق عليهم ما كتبه الله تعالى لهم من الفسق والعصيان.

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾

وإلى هنا أثبت المبدأ، ويعقبه ذكر المعاد. أي حيث اعترفتم بأن الأرض والسماء والسمع والبصر والموت والحياة خالقها وقيومها كلها هو الله تعالى، فمن الطبيعي أن إعادة الخلق من جديد بعد موته ليس إلا من فعله سبحانه وتعالى، ثم إنه أخبر بهذه الإعادة على لسان الأنبياء عليهم السلام، فما الذي يمنعكم عن الإيمان به؟ وأنى تؤفكون فيما يخص المعاد بعد أن اعترفتم بالمبدأ؟

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾

ويذكر ما بين المبدأ والمعاد من الوسائط، أي كما أن الذي بدأ الخلق والذي يعيده هو الله تعالى، كذلك لايهدي إلى الطريق الصحيح إلى المعاد غيره، والخلق كبيره وصغيره في حاجة إلى هدايته، وعليهم جميعًا أن يهتدوا بهديه وإرشاده. وأما الصنم المسكين فأنى له أن يقدر على الهداية و الإرشاد؟ وقد اعترف كبار المقربين إليه – الأنبياء والملائكة عليهم السلام- بصورة مستمرة بأنه ليس لهم أن يخطو خطوة واحدة إذا لم يتداركهم هدى من الله تعالى. وليست هدايتهم مقبولةً في حق العباد إلا لأن الله تعالى يهديهم مباشرةً، فما أظلم أن يعرض الإنسان عن هذا الهادي المطلق إلى تلمس سند ضعيف، بأن يقلد الأحبار والرهبان تقليدًا أعمى.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

وحيث تبين أن المبدئ والمعيد والهادي هو الله تعالى، فمن خالفه إلى اتخاذ سبيل الشرك عليه أن يفكر: هل يملك من دليل وبرهان حمله على الإعراض من مذهب التوحيد القديم والقويم إلى هوة الضلال؟ ولاشك أنه لايملك إلا الأوهام والظنون وإن هو إلا يخرص. وهل يغني الخرص من الحق والصدق شيئا؟

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾

نبهت الآية السابقة على أن المشركين لايتبعون إلا الظن والخرص مع أن الأحق بالاتباع هو من يهدي إلى الطريق المستقيم، فبدأ هنا بذكر القرآن الكريم بهذه المناسبة، وهو أنه الكتاب الوحيد اليوم في الدنيا، يهدي إلى الطريق الصحيح، ويبين الحقائق من الظنون والأوهام. والنظر في علومه ومعارفه وأحكامه وقوانينه، وإعجازه وفصاحته وجزالته يدفع إلى القول بأن القرآن الكريم ليس كتابا يختلقه غيره سبحانه تعالى ويقدمه للناس، وقد عجز عن الإتيان بسورة مثله- فضلًا عن الإتيان بالقرآن كله- الجن والإنس، كما سيأتي لاحقًا.

فائدة:

يتجلى كون القرآن الكريم كلام الله تعالى بأنه يصدق الكتب السماوية السابقة كلها، ويحفظ أصل معانيها، ويعلن بتنبؤاته على رؤوس الأشهاد.

فائدة:

أي يفصل القرآن الكريم الأحكام الإلهية والحقائق والمعارف التي كانت في منتهى الإجمال في الكتب السابقة. فالحق أن العاقل ما كان له أن يشك في هذا الكتاب. فهذا الكلام الجامع البليغ الحكيم، والعامر بنور الصدق لن يكون إلا كلام الله تعالى.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾

أي إن رأيتم أني افتريت هذا القرآن، وأنتم بشر مثلي، فهلا اجتمعتم على الإتيان بسورة مثله، و ادعوا الخلق كله، واجمعوا الجن والإنس كلهم، فليأت فصحاء العالم وبلغاؤه ومثقفوه وجهلته بكلام قصير مثل القرآن الكريم، وحينئذ قلتُ: إن القرآن كلام البشر، وبإمكان الآخرين أن يأتوا بمثله. وهيهات وهيهات أن يأتي خلق بمثله إلى أبد الآباد. فالقرآن الكريم فيه تهذيب الأخلاق والمدنية والاجتماع و الحكومة والسياسة والمعرفة والروحانية وتزكية النفوس وتنوير القلوب، وبالإجمال جميع القوانين والطرق التي تؤدي إلى الله تعالى وإلى تدبير الخلائق ورفاهيتها، والتي تحقق الغرض من خلق العالم، والتي لن يُرجى تدوينها وترتيبها على يد أمي من أمة أمية، وبجانب ضمانه لهذه العلوم والتوجيهات، فصاحته وبلاغته المتغلغلة، وأسلوبه الجامع المؤثر الخلاب، وموجه مثل موج البحر، وسلاسته السهلة الممتنعة، والتفنن في أساليب الكلام، وحلاوته

ولذته وجزالته الملكية، كل ذلك مما تحدى بكل قوة وبنداء عالٍ العالمَ كله.

ومنذ أن رفع جمال القرآن الباهر للعالم النقاب عن الغيب، وعرَّف البشر بحقيقته، استمر ادعاؤه بأنه كلام الله تعالى، وكما عجز العالم كله عن خلق أرض مثل أرض الله تعالى، وعن خلق شمس مثل شمس الله تعالى، وعن خلق سماء مثل سماء الله تعالى، كذلك يعجز العالم كله عن الإتيان بقرآن مثل قرآن الله تعالى. وينسج الناس دسائس لمحو القرآن، ويمكرون مكرا كبارا، ويضحون بأنفسهم حرصًا على معارضة القرآن الكريم، ويستغيثون القوى العالمية الكبرى، ولايدعون حيلة أو تدبيرًا أو مكرًا إلا يأتونه ويمارسونه، ويعرِّضون أنفسهم وغيرهم للمصائب، ويستهينون جميع المصائب والدواهي، وأما أن يأتوا بسورة قصيرة مثل القرآن الكريم فهيهات وهيهات، (قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْاِنْسُ وَالْجِنُّ عَلٰٓى اَنْ يَّاْتُوْا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْاٰنِ لَا يَاْتُوْنَ بِمِثْلِهٖ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيْرًا) [١٧-الاسراء:٨٨].

بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

أي وصفهم القرآن الكريم بأنه مفترى ليس نابعًا عن فهم ودراية؛ بل عن جهل وسفه وقلة تدبر؛ فإن عنادهم وعصبيتهم لاتسمح لهم بأن ينظروا في حقائق القرآن الكريم ووجوه إعجازه بهدوء وروية. وحيث لم يدركوا دلائل القرآن وعجائبه كل الإدراك لسوء فهمهم أو لعدم استخدامهم القوى الفكرية استعمالًا صحيحًا ذهبوا إلى تكذيب القرآن.

فائدة:

وحمل بعض المفسرين التأويل على التفسير، أي لاتنزل مطالب القرآن في قلوبهم، وحمل بعضهم على التنبؤات القرآنية، أي من وجوه التكذيب في حق بعض السذج أن ما تنبأ به القرآن عن المستقبل لم يأت أوانه بعدُ، فهم ينظرون متى يقع؟ ولكن أنى يكون ذلك من وجوه التكذيب؟ وغاية ما يقتضي التوقف.

وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

أي سيؤمن بعضهم لاحقًا، ويستمر من عداهم على الشر والفتنة، فالله تعالى أعلم بهم، ويعاقبهم في حينه.

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

فإن كذبك هؤلاء بعد سماع الأدلة والبراهين، فقل لهم: قد قمت بواجبي، وأنتم أبيتم ولم تقبلوا ما أقول، فهذا مفترق الطريق بيننا وبينكم، أنتم مسؤولون عن أعمالكم، وأنا مسؤول عن عملي. وسينال كلنا جميعا ثمرة أعماله حتمًا. ويقول الشاه رحمه الله: العياذ بالله لو بلغتكم حكما على خلافه من الله تعالى، فأنا آثم، وإن بلغتكم الصواب والحق، وأبيتم إلا الكفر، فإثمه عليكم. وعلى كل، ولاضرر في الإيمان بصورة أو بأخرى.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴿٤٣﴾

ومنهم من يسمع القرآن الكريم وكلامك ظاهرًا، ويرى معجزاتك وكمالاتك؛ ولكن لاينفع من السماع والرؤية إلا ما كان عن أذن القلب وعينه. وليس بيدك أن تسمع صم القلوب كلامك، في حين لايفهمون كلاما لشدة صممهم، وليس بيدك أن تهدي عمي القلوب وهم لايرون شيئا. وفي «موضح القرآن»: أي لهم آذان أو عيون يرجون أن تتصرف في قلوبهم، كما وقع لبعضهم، فهذا بيد الله تعالى، وحمل بعض المفسرين قوله: (لَا يَعْقِلُوْنَ) على نفي مطلق العقل، وقولَه: (لَا يُبْصِرُوْنَ) على نفي البصيرة. أي أنهم علاوة على عدم السمع والبصر محرومون من أنواع الفهم كلها. فأنى لك أن تحملهم على الإيمان بالإسماع والإراءة؟

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

أي من لم يتأثر قلبه فهو تقصير منه، فقد أبطل بطغيانه وعصيانه القوى المدركة، وقد رزق الله تعالى كل إنسان قوة الفهم والقبول.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

أي ينظرون إلى أهوال المحشر وأحداثه فيحتقرون ما لقوه من الراحة والنعيم طوال عمرهم، كأنهم لم يلبثوا في الدنيا أكثر من ساعة، ويعضون بنان الندم على أنهم كيف انقضى عمرهم في اللغو والعبث، كما يقضي المرء ساعة أو ساعتين في الفكاهة والسوالف. ويرون ما في المحشر من المصائب التي تذيب المرارة فيقولون: كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا مدة قليلة حتى داهمهم هذا الوقت. ولم يلبثوا إلا ساعة أو ساعتين، ثم تورطوا فيما هنا، ولو طالت مدة الدنيا ولو قليلًا، لم نلاق هذا اليوم بهذه

السرعة. وقال بعض المفسرين: يرون مدة اللبث في البرزخ – القبر- ساعةً. والله أعلم.

فائدة:

ولايملكون أن ينصروا أنفسهم، وكلهم يقول: نفسي نفسي، ولايغني الأخ أخاه، ولا الابن أباه، (فَلَآ اَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَّلَا يَتَسَآءَلُوْنَ) [٢٣/المؤمنون:١٠١]، و(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ اَخِيْهِ * وَاُمِّهٖ وَاَبِيْهِ * وَصَاحِبَتِهٖ وَبَنِيْهِ) [٨٠/عبس:٣٤-٣٦].

فائدة:

وأما من آمن بلقاء الله تعالى، وسلك الطريق المستقيم فقد ربح وأفلح.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

أي ما وعدناه من تعذيب الكفار وإظهار الإسلام ونصره، سواء حققنا بعضه في حياتك، كما تحقق في بدر ونحوها، أو بعد وفاتك، فلا يظهر بعضه في حياتك، ولكن من اليقين أن هذه الوعود لابد أن تتحقق، وإن لم نعاقب هؤلاء الكفار في الدنيا لمصلحة، فإنه لابد أن يعذبوا في الآخرة، وأين المهرب لهم منا؟ فإن مرجعهم إلينا، وأعمالهم بين أيدينا. ويقول الشاه رحمه الله: كان ظهور الإسلام وغلبته بعضها بين يدي (تَوَفَّيَنَّكَ) إشارة إلى ذلك. والله أعلم.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

ذكر أولًا هذه الأمة ورسولها، ثم يذكر السنة أي الأمم العامة، وهي أنه أرسل إلى كل أمة من يبلغ أحكام الله تعالى، ويطلق عليه الرسول، وذلك كي تتم حجة الله تعالى، ولايعذب أحد قبل أن يتم عليه حجته. ويكسب الناس الأعمال مسبقًا، ولايعاقبون عليها إلا بعد بلوغ الرسول وإتمام الحجة عليهم. ولايظلم الله تعالى بأن يحكم على الجاني قبل أن ينبهه وقبل أن تثبت جريمته. فإنهم يُمثَّلون في القيامة، ويوجه إليهم التهم، ويحضر الشهود، ومع كل أمة رسولها، فيُسمع إلى أقوالهم،ثم يحكم الله بينهم بالعدل الكامل: (وَ اَشْرَقَتِ الْاَرْضُ بِنُوْرِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتٰبُ وَجِايْٓءَ بِالنَّبِيّٖنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُوْنَ) [٣٩-الزمر:٦٩].

وحمل مجاهد وغيره هذه الآية على أحوال القيامة.

* * *

* *

من صور الحوار في سورة الكهف

بقلم: الأستاذ/ عبد الغني أحمد ناجي

سيظل القرآن الكريم، كتاب الله الحكيم حتى يرث الله الأرض ومن عليها – مصدر المعارف الإنسانية في كل مناحي الحياة، وهذا جانب من جوانب إعجازه التي لم يصل إلى مداها البعيد بلغاء البشر من علماء ومفكرين، وستظل أنوار إعجازه على الزمن تتلألأ كالنجوم التي لا يحصى لها عدد، فما من يوم يمر إلا ويسطع نجم من نجوم الإعجاز القرآني يبهر المعاندين بله المؤمنين. وجانب الحوار في القرآن نبع تربوي فريد يرسم الخط المستقيم للحوار المنتج العظيم، وينبه إلى الحوار الذميم، غير المنتج العقيم.

فالحوار بداهة ينحصر في نوعين حسب الركيزة التي يعتمد عليها كل منهما، أو الخلفية النفسية التي تدفع إلى كليهما. فحوار الحق والحيدة حوار منتج مريح يصل إلى مدى صحيح، ويدفع إليه باعث إنساني هو نِشْدانُ الحق والصواب، وحوار اللجاج والمكابرة حوار معوج قبيح لا يصل إلا إلى سراب، وباعثه الخواء الفكري، والغرور البشري.

والقارئ لسورة الكهف من كتاب الله الكريم، قراءة تدبر وإمعان – يجد مشاهد من الحوار تجلي نوعيه الآنفين، وكأنها تهتف بالقارئ وغيره ممن يعي أن يلتزم حوار الحق في حياته؛ ليحيا سويًّا سعيدًا في كل أحواله، وأن يتجنب حوار اللجاج والمكابرة؛ لأنه – فوق عقمه وذمه – مرهق للأعصاب، ومربك للفكر، ومسئم للنفس. ونعيش في رحاب السورة الكريمة: سورة الكهف لنشهد المشاهد الحوارية التي تدعم ما نقول:

ولحكمة جليلة نجد السورة الكريمة تبدأ بالتذكير بحمد الله تعالى الذي أنزل الكتاب الكريم قيمًا لا عوج فيه، ونقول حتى ما يتضمنه من حوار ينشد به الحق لا عوج فيه، وكأن القرآن ضمنًا ينهى عن كل حوار معوج يبتغى به الكبر والعناد؛ لأن الحوار الإنساني السوي لا عوج فيه، وما فيه عوج

هـو جـانح عـن الفطـرة البـشرية الـسوية، يقـول بـدء السورة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ (الكهف:١-٢) ولما كان حوار الجدل والمكابرة ملقيًا في قلب صاحب الحق ما لا يحتمل من الحزن والألم، ولما كان ذلك هو ما يحدث من المشركين المعاندين أمام رسول الله ﷺ وهو يدعوهم إلى عبادة الله الحق وحده – جاءت الآية التالية مسليةً للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ورابطة على قلبه، ومقوية أزره تجاه أي حوار جانح عن الحق، يقول تعالى لنبيه ومصطفاه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦) وتأتي الآية التالية لتبين الخلفية النفسية، أو الباعث الحقيقي والدافع الأساسي لحوار الباطل، ذلك الباعث الذي يتركز حول الاغترار بالدنيا وزخرفها، فذلك الاغترار يطمس على البصيرة طمسًا لا يستطيع معه الإنسان التمييز بين الحق والباطل، فيحركه الاغترار بطاقة شيطانية إلى الجدل والمكابرة، والإشارة إلى زينة الدنيا يوحي بأن عمر حوار الباطل قصير، ومآله الخفوت ثم السكوت، كزوال بهارج الحياة وزخارفها، وفي الإشارة إلى تلك الزينة تسلية أخرى لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ (الكهف:٧) وسرعان ما تزول الزينة، أو سرعان ما تزايل الأرض زينتها الطارئة وتتركها جرداء قاحلة: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ (الكهف:٨) فكذلك حوار المعاندين سرعان ما ينطفئ أواره، وسرعان ما تزايل أصحابه قوتهم ومكابرتهم، وفي السورة نفسها بعد قليل نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ (الكهف:٤٥) ففي الإطار نفسه تدور تلك الآية الكريمة، فالبهرج يبهر، ولكنه لا يعتمد على أساس متين، من ثم سرعان ما يزول كالحباب فوق الماء، وكذلك حوار العناد والمراء.

ثم تصل بنا السورة الكريمة إلى أول مشهد حواري من حوار الحق والصفاء، ذلك الحوار الذي جرى بين الفتية بعد يقظتهم أو بعثهم، فهم يمثلون العنصر البشري السوي، وحوارهم نموذج للحوار الصافي من أدران العناد والاستكبار، وكأن السورة

تقول: هكذا ينبغي أن يكون الحوار، فعند يقظتهم سأل واحد منهم بقية إخوته: «كم لبثتم في الكهف، قالوا: «لَبِثْنَا يَوْمًا أَو بَعْضَ يَوْمٍ»، فلم يعل صوت منكرًا هذا القول، ولم يحدث لجاج وهياج، وإنما أغلقوا باب الحديث، والتساؤل برتاج يمنع اللجاج، وأراحوا أنفسهم بأمثل الآراء التي تبقي على المودة والإخاء، بقولهم: ﴿... رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ (الكهف:١٩) وانصاع الجميع لهذا القول الرشيد، واشتغلوا بما هو أهم وأجدى لهم في تلك اللحظة؛ إذ ماذا يفيد معرفة مدة لبثهم، وهم يحسون وخز الجوع، ولهيب الطوى؟ فليبعثوا أحدهم ليأتي لهم بالطعام وكأن في سرعة لجوء الفتية إلى الحديث في شأن الطعام تنبيهًا لمن يلجأ إلى الحوار أن يمعن النظر في جدواه ليقدم عليه ما هو أهم له في دنياه وأخراه، فبذلك النهج السليم تحسم كثير من المواقف الحوارية التي تؤدي بالمتحاورين إلى ما لا تحمد عقباه، تقول الآيات الكريمة في تصوير ذلك المشهد: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ (الكهف:١٩-٢٠).

نقرأ هاتين الآيتين الكريمتين المصورتين لمشهد حوار بين فتية أوقظوا أو بعثوا بعد اختفائهم في الكهف فرارًا بدينهم وعقيدتهم من أذى الجبابرة العتاة – فلا نحس صياحًا أو صراخًا، ولا نلمس صراعًا أو عنادًا، ولا نجد من يكذب أو يدحض ولا نسمع الأيمان تصك الآذان، وإنما نحس الهدوء والصفاء، والاقتناع والانصياع، وإرجاء الأمر غير البين إلى علم الله تعالى، ثم الاشتغال بما يجدي ويفيد، وما يفيد الآن هو الحصول على ما يقيم الأود بوسيلة لا يحس بها أحد من أعدائهم ومن يتربصون بهم الويل والنكال، يذهب أحدهم ليشتري لهم الطعام بمال حلال، وليكن الطعام طيبًا لا سحت فيه: ﴿... فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ (الكهف:١٩) أي أطهر وأطيب، وليحسن المجادلة عند الشراء، وليحذر شعور الأعداء حتى يأكلوا طعامهم في أمن وهناء: ﴿... وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾

(الكهف:١٩) فلو شعر بهم الأعداء لقتلوهم، أو أعادوهم إلى ملتهم الفاسدة، وفي ذلك خسران مبين: ﴿... إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ (الكهف:٢٠) ففي هذه الأمور المجدية ينبغي أن يصب الحديث لا في السؤال والجدال حول المدة التي مضت عليهم وهم في كهفهم، فالله أعلم بها ما داموا لا يتحققونها، فليتنا نعي هذا النهج الحواري الرشيد: لنحقق المفيد بعقل مستنير، ونوصد أبواب الشرور!!

ثم تطالعنا الصورة الكريمة بمشهد اختلاف الناس في عدد أصحاب الكهف، ويتحاورون، وتحكي السورة ما سيكون بينهم من حوار، وتعلم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمسلمين جميعًا المنهج السديد في الحوار إزاء شيء لا يعلم أبعاده الحقيقية سوى الله تعالى، فترشد إلى وجوب إنهاء الخلاف، أو حسم الحوار بإرجاع العلم والدراية إلى علم الله تعالى، فذلك صمام أمان يقي المتحاورين الخصومة والشنآن.

تقول الآية في تصوير ذلك المشهد المعلم: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف:٢٢).

وإذا خرج الإنسان في حدة الحوار إلى قطع وعد بعمل شيء لا يطيقه، أو ليس في مكنته – فيجب أن يتوب ويثوب، ويستغفر الله تعالى ولا يعود إلى إسلاس قياده لحدة الحوار التي تشبه النار وتلفح الفكر فينسى الذكر: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ...﴾ (الكهف:٢٣-٢٤).

وإذا ركب صاحب حوار الباطل رأسه، وأغلق منافذ فكره، وسار وراء تعنته وكبره – جاء المشهد الذي يعلم صاحب حوار الحق كيف يصل إلى الهدف بأسلوب تربوي منتج، فما عليه إلا أن يبين الحق ويجليه، ويكشف الباطل ويعريه، ثم يترك لمن يحاور بالباطل أن يختار بعد إطفاء جمرة الحوار: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ...﴾ (الكهف:٢٩) ومع تجلية الحق، وتعرية الباطل يجدر أن يذكر المصير والمآل، فمآل الحق فوز ونعيم، ومصير الباطل خسران وجحيم،

تقـول الآيـات التاليـة للمـشهد في بيـان المـآلين والمصيرين: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ۝٢٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ (الكهف:٢٩-٣١).

ثم نصل إلى مشهد حيوي من مشاهد الحوار التي تتكرر بين البشر ما دام الليل والنهار، فهو الحوار الذي يحتدم دائمًا بين من يطغيهم المال والنعيم، فيصرفهم عن الحق والمنهج السليم، وبين من حرموا زخارف الحياة فحمدوا الله، ورضوا بما قسم الإله: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ۝٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ۝٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ﴾ (الكهف:٣٢-٣٤) وهنا يبدأ الحوار، فيقول صاحب النعيم الذي أطغاه لمن رضي بقسم الله: ﴿... فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ (الكهف:٣٤) ثم ينطق أمام صاحبه ليغيظه بعبارة الطغيان والجحود حينما دخل جنته وظنها الخلود: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ (الكهف:٣٥-٣٦) وقد دفعه غروره وطغيانه إلى حسبان أن الله سيبدله خيرًا منها في أخراه إن فنيت في دنياه، فيقول: ﴿... وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ (الكهف:٣٦).

هذا نموذج لمتحاور فظ أغلق النعيم كل منافذ فكره السليم، فما عاد يفكر فيما يجب عليه تجاه النعيم الذي لديه فاستخفته النعم فنسي المنعم، وافتخر بالنعيم على صاحبه المحروم، وكان المتوقع أن يوغر صدره، ويخرجه عن طوره؛ ولكن قوة إيمانه، وثبات يقينه وجنانه مَنَعاه إيغار الصدر، وعصماه من الغل والشر، فالتزم جانب النصح والتحذير لصاحبه المغرور، تقول الآية في تصوير هذا الجانب من ذلك المشهد: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ۝٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ

بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ (الكهف:٣٧-٣٩) فهذا نموذج بشري سوي، لم يخرجه الحوار الداعي إلى الغيظ والإيغار – إلى الأسى الموار، فاعتصم بقوة إيمانه، ونطق بكلمات تنم عن زهده في نعيم يؤدي بصاحبه إلى الجحيم، ثم نظر إلى صاحبه نظرة السليم إلى السقيم، فصاحبه حقا سقيم، فأرشده إلى ما كان ينبغي أن يكون منه تجاه نعمة الله التي لديه بدل الفخر والتطاول عليه: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ...﴾ (الكهف:٣٩) ويستمر المشهد لنرى فيه جانب الإيمان بتغير الأحوال عبر الزمان، وهذا التغير سنة الله في الحياة، فيقول المؤمن المحاور صاحبه مبينًا هذه السنة في الحياة: ﴿... إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾ (الكهف:٣٩-٤١) ما صاح وما هاج وما افتخر على صاحبه بنعمة أخرى لديه، وإنما نبهه إلى أن الذي أعطاه هو الله، والله قادر أن يقلب الميزان، فيغدق الخير على المؤمن المحروم، ويحرم الكافر الجاحد المذموم، ويختم المشهد بحدوث ما توقعه ذلك المؤمن لصاحبه الملحد: ﴿... وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرٗا﴾ (الكهف:٤٢-٤٣).

وقد ذكرت آيات ختام المشهد ما توقعه المؤمن للملحد، ولم تذكر ما توقعه لنفسه من خير حينما حاور صاحبه، وأرشده إلى ما ينبغي أن يكون منه تجاه الخير الذي أغدقه الله عليه: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ (الكهف:٤٠) للإشارة – والله أعلم – إلى أن نعيم الدنيا ليس هو مطمح المؤمنين الصادقين، وإنما مبتغاهم وقرة عيونهم في ثواب الله، ونعيمه المقيم في جنات النعيم، ومن ثم جاءت الآية التالية تبين ذلك وتشير إليه: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾ (الكهف:٤٤).

وجاء حسم المشهد الحواري بين النموذجين البشريين السابقين في آية تالية تقرر أن زينة الحياة الدنيا مال وبنون، وتقرر أن رصيد المؤمن من عمله

الصالح خير وأفضل عند الله، والمؤمنون حقًّا هم الذين يعقلون تلك الموازنة، فلا يتكالبون على زينة الحياة وينسون ذكر الله، تقول الآية الكريمة: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف:٤٦) من هذا المشهد نرى حوار الحق والإيمان ثابت الجنان، قوي الدعائم والأركان، وحوار الغرور والبهتان واهي الحجة مؤديًا إلى الهلاك والخسران، ومن هذا الحوار ونتائجه يبدو لنا المنهج السوي، والأسلوب الأريحي في مجالات الحوار الحيوي؛ لنسير على هذا النهج، ونتبع ذلك الأسلوب الأريحي في مجالات الحوار الحيوي، لنسير على هذا النهج، ونتبع ذلك الأسلوب مصارعين الطبع البشري الذي جبل عليه الإنسان من كثرة المراء والجدل، فقد ضرب القرآن المثل ليحسن الإنسان الجدل، تقول الآيات بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف:٥٤) فما سيق المثل في القرآن – كمشاهد الحوار في سورة الكهف – إلا ليتعلم الإنسان نهج الله وهداه لتطيب له دنياه، ويسعد في أخراه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩).

ثم تختم السورة الكريمة – سورة الكهف – بمثل ما بدأت به فتطالعنا قبيل آخرها بمشهد حواري تتمثل فيه جوانب المثالية الحوارية، وهو بهذا يمثل النوع الأول من نوعي الحوار، وهو حوار الحق ونشدانه، لا حوار العناد وشنآنه، ذلك هو المشهد الحواري الذي دار بين نبي الله موسى، وولي الله الخضر عليهما السلام، فموسى عليه السلام حينما يلتقي بالخضر بعد شأو طويل، ونصب وتعب – يعرض عليه بأريحية وأدب أن يسير معه ويتبعه ليتعلم منه ما علمه الله إياه، النبي يتعلم من الولي، ويستأذنه في الجانب الأول من جوانب الحوار – في السير معه، والأخذ عنه، والتعلم منه: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف:٦٦) فجانب النبوة وإن كان أسمى من الولاية؛ ولكننا لم نلمس منه حينئذ كبرًا أو شموخًا أو تعاليًا؛ لأن الله تعالى أوحى إلى نبيه موسى عليه السلام أن يذهب إلى الخضر عليه السلام ليجد لديه من العلم ما لا يعلم، فلم يقل موسى للخضر: أنا نبي وأنت ولي، كما قال صاحب الجنتين المغرور لصاحبه الفقير: في حوار العناد

والاستكبار في مشهده السابق: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ (الكهف:٣٤) ولما رد الخضر على موسى عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ (الكهف:٦٧) كان الرد على الرد حوارا ينبعث منه رضا النفس، وهدوء الطبع، ونشدان الحق؛ إذ قال موسى عليه السلام في رده: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ (الكهف:٦٩). فيتعهد في حواره بكل ما يطلبه الجانب الآخر ليريح نفسه، ويثلج صدره، فيختم الخضر منشوداته بقوله الذي ينم عن رضاه وموافقته: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ (الكهف:٧٠) فيسكت موسى عليه السلام دليل الموافقة والرضا أيضًا، وينتهي المنظر الأول من مشهد الحوار ليبدأ المنظر الثاني الذي يتضمن أعمالا من الخضر لا يطيق السكوت أمامها بشر مهما أوتي من قوة الصبر والتحمل، كخرقه السفينة للأيتام، وقتل الغلام، وبناء الجدار لمن حرموهم الطعام، فيسأل موسى عليه السلام عن الأسباب في استغراب حواري هادىء ليس فيه سوى الرغبة النفسية الأكيدة في معرفة الجواب، ويكون الرد من الخضر عليه السلام في كل مرة تذكيرًا لموسى عليه السلام بالعهد الذي أخذه على نفسه بالسكوت، وتذكيرًا بقوله له في صدق ويقين: ﴿إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ وقبيل اشتداد الخلاف واحتدام النزاع يحسم الخضر عليه السلام الموقف بقوله لموسى عليه السلام: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾ وحتى لا يتسرب غضب إلى النفوس يردف الخضر متعهدًا ببيان الأسباب، وتفسير المواقف التي لم يستطع موسى عليها صبرا: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ ثم يأخذ في بيان الأسباب ليزيل الاستغراب، وينتهي مشهد الحوار دون لجاج أو جدال مع احتواء المشهد ما يدعو إلى اللجاج والجدال، وكأن الآيات الكريمة التي ساقت المشهد تهتف بالإنسان عبر الزمان أن يلتزم هذا الحوار الذي لا يشعل أوار نار، ولا يقض المضجع بالليل والنهار؛ بل يشرح النفوس والصدور ويقضي على بواعث الشرور.

وبعد، فلعلنا بعد استعراض هذه المشاهد الحوارية في سورة الكهف الكريمة نكون قد وعينا أمثل أنواع الحوار لنلتزمه في حياتنا لنسعد ونسعد: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ (الأنعام:٣٨).

من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

(٦ - المائدة: ٣٢-٤٢)

بقلم: رئيس التحرير

١ - قال الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة:٣٢].

فإن قلت: من المعلوم بداهةً أن قتل الواحد لا يكون مثل قتل الناس جميعًا فما وجه ذكره؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: المقصود من تشبيه قتل النفس الواحدة بقتل النفوس، المبالغة في تعظيم أمر القتل العمد العدوان وتفخيم شأنه، يعني كما أن قتل كل الخلق أمر مستعظم عند كل أحد، فكذلك يجب أن يكون قتل الإنسان الواحد مستعظمًا مهيبًا، فالمقصود مشاركتهما في الاستعظام لا بيان مشاركتهما في مقدار الاستعظام، وكيف لا يكون مستعظمًا وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٩٣). ذكره الرازي، والبيضاوي، وأبوالسعود[1].

وعن هذا المعنى عبر ابن عاشور فقال: ومعنى التشبيه في قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ حثّ جميع الأمّة على تعقّب قاتل النّفس وأخذه أينما ثقف والامتناع من إيوائِه أو الستر عليه، كلّ مخاطب على حسب مقدرته وبقدر بسطة يده في الأرض، من ولاة الأمور إلى عامّة النّاس. فالمقصود من ذلك التشبيه تهويل القتل وليس المقصود أنّه قد قتل النّاس جميعًا، ألا ترى أنّه قابل للعفو من خصوص أولياء الدم دون بقية النّاس. على أنّ فيه معنى نفسانيًا جليلًا، وهو أنّ الداعي الّذي يقدم بالقاتل على القتل يرجع إلى ترجيح إرضاء الداعي النفساني النّاشىء عن الغضب وحبّ الانتقام على دواعي احترام الحقّ وزجر النّفس والنظر في عواقب الفعل من نُظم العالم، فالّذي كان من حيلته ترجيحُ ذلك

الـدّاعي الطفيـف عـلى جملـة هـذه المعـاني الـشّريفة، فـذلك ذو نفـس يوشـك أن تـدعوه دَوْمًـا إلى هـضم الحقوق، فكلّما سنحت له الفرصة قَتل، ولو دعته أن يقتل النّاس جميعًا لفعل. ولك أن تجعل المقصد من التشبيه توجيه حكم القصاص وحقّيّته، وأنّه منظور فيه لحقّ المقتول بحيث لو تمكّن لما رضي إلّا بجزاء قاتلـه بمثـل جرمـه؛ فـلا يتعجّـب أحـد مـن حكـم القصاص قائلًا: كيف نصلح العالم بمثل ما فسد به، وكيـف نـداوي الـداء بـداء آخـر، فبُـيّن لهـم أنّ قاتـل النّفس عند وليّ المقتول كأنّما قتل النّاس جميعًا. وقد ذُكـرتْ وجـوه في بيـان معنـى التـشبيه لا يقبلهـا النّظر[٢].

الوجه الثاني في الجواب: هو أن جميع الناس لو علموا من إنسان واحد أنه يقصد قتلهم بأجمعهم فلا شك أنهم يدفعونه دفعًا لا يمكنه تحصيل مقصوده، فكذلك إذا علموا منه أنه يقصد قتل إنسان واحد معين يجب أن يكون جدهم واجتهادهم في منعه عن قتـل ذلـك الإنـسان مثـل جـدهم واجتهـادهم في الصورة الأولى. ذكره الرازي، وابن الجوزي[٣].

الوجه الثالث في الجواب: وهوأنه لما أقدم على القتـل العمـد العـدوان فقـد رجّـح داعيـة الـشهوة والغضب على داعية الطاعة، ومتى كان الأمر كذلك كـان هـذا الترجيح حاصـلًا بالنسبة إلى كـل واحـد، فكان في قلبه أن كل أحد نازعه في شيء من مطالبه فإنه لو قدر عليه لقتله، ونيّة المؤمن في الخيرات خير مـن عملـه، فكـذلك نيّـة المـؤمن في الـشرور شرمـن عمله، فيصير المعنى: و من يقتل إنسانًا قتلًا عمدًا عدوانًا فكأنما قتل جميع الناس. ذكره الرازي[٤].

الرابـع: قـال ابـن عبـاس رضي الله عـنهما في رواية عكرمة: من قتل نبيًا أو إمام عدل فكأنما قتل الناسَ جميعًا، ومن شدّ عضد نبيٍّ أو إمام عدل فكأنما أحيـا النـاسَ جميعًـا. ذكـره الطـبري، و البغـوي، والقرطبي، والشوكاني، وابن الجوزي[٥].

الخامس: قال مجاهد: من قتل نفسًا محرّمة يصلى النار بقتلها، كما يصلاها لو قتل الناس جميعًا، ومن أحياها من سلم من قتلها فقد سلم من قتل الناس جميعًـا. ذكـره الطـبري، والزمخـشري، والبغـوي، والقرطبي، والشوكاني، وابن الجوزي، وابن كثير[٦].

السادس: قال قتادة: أعظم الله أجرها وعظّم وزرهـا، معنـاه: مـن اسـتحلّ قتـل مـسلم بغـير حقـه فكأنما قتل الناس جميعًا في الإثم لأنهم لا يسلمون منه، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾، وتورّع عن قتلها، ﴿فَكَأَنَّمَآ

أَحْيَا ٱلنَّـاسَ جَمِيعَـاۚ﴾. ذكره البغوي، و الشوكاني، وابن كثير(٧).

السابع: لأن كل إنسان يدلي بما يدلي به الآخر من الكرامة على الله وثبوت الحرمة، فإذا قتل فقد أهين ما كرم على الله وهتكت حرمته وعلى العكس، فلا فرق إذًا بين الواحد والجميع في ذلك. فإن قلت: فما الفائدة في ذكر ذلك؟ قلت: تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ليشمئز الناس عن الجسارة عليها، ويتراغبوا في المحاماة على حرمتها؛ لأنّ المتعرض لقتل النفس إذا تصوّر قتلها بصورة قتل الناس جميعًا عظم ذلك عليه فثبطه، وكذلك الذي أراد إحياءها. ذكره الزمخشري(٨).

الثامن: عن الحسن: يا ابن آدم، أرأيت لو قتلت الناس جميعًا أكنت تطمع أن يكون لك عمل يوازي ذلك فيغفر لك به؟ كلا إنه شيء سوَّلته لك نفسك والشيطان، فكذلك إذا قتلت واحدا. ذكره الزمخشري، و النسفي، و ابن الجوزي، وابن كثير(٩).

التاسع: روي عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا؛ أنه قال: المعنَى: مَنْ قتل نفسا واحدةً، وانتهكَ حرمتها، فهو مِثْلُ مَنْ قتل الناس جميعًا، ومَنْ ترك قتْلَ نفسٍ واحدةٍ، وصان حرمتها؛ مخافَتِي، واستحياها، فهو كَمَنْ أحيا الناسَ جميعًا. ذكره الثعالبي والقرطبي، وابن كثير(١٠).

العاشر: وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: المعنى فكأنما قتل الناس جميعًا عند المقتول، ومن أحياها و استنقذها من هَلَكَة فكأنما أحيا الناس جميعًا عند المستنقذ. ذكره الطبري، والقرطبي، والآلوسي و عزاه إلى ابن مسعود، وابن كثير(١١).

الحادي عشر: وقال ابن زيد: المعنى أن من قتل نفسًا فيلزمه من القَوَد والقصاص ما يلزم من قتل الناس جميعًا، قال: ومن أحياها أي من عفا عمن وجب له قتله؛ وقاله الحسن أيضًا؛ أي هو العفو بعد المقدرة. ذكره الطبري، والقرطبي، والشوكاني، وأبوالسعود، والآلوسي، وابن الجوزي، وابن كثير(١٢).

الثاني عشر: وقيل: المعنى أن من قتل نفسًا فالمؤمنون كلهم خُصَماؤه؛ لأنه قد وَتَر الجميع، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا، أي يجب على الكل شكره. ذكره القرطبي، و الشوكاني(١٣).

الثالث عشر: وقيل: جَعَل إثم قاتل الواحد إثم قاتل الجميع؛ وله أن يحكم بما يريد. ذكره القرطبي(١٤).

الرابـع عـشر: قيـل: كـان هـذا مختـصًا ببنـي إسرائيل تغليظًا عليهم. ذكره القرطبي(١٥).

الخامس عشر: قال ابن عطية: وعلى الجملة فالتشبيه - على ما قيل- واقع كلّه، والمنتهك في واحد ملحوظ بعين منتهك الجميع؛ ومثاله رجلان حلفا على شجرتين ألاَّ يَطْعَمَا من ثمرهما شيئًا، فَطعِم أحدهما واحدة من ثمر شجرته، وطَعِم الآخر ثمر شجرته كلّها، فقد استويا في الحِنْث. ذكره القرطبي(١٦).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨].

فإن قلت: المنهاج والشرعة بمعنى واحد فما فائدة التكرار؟

فالجواب من وجوه:

الأول: الشرعة والمنهاج لفظان لمعنى واحد أي: طريقًا، وكرر للتوكيد كما قال الشاعر:

وهند أتى من دونها النأي والبعد.

ذكره أبوحيان(١٧).

الثاني: قال ابن عباس والحسن وغيرهما: سبيلًا وسنة. ذكره أبوحيان(١٨).

الثالث: قال مجاهد: الشرعة والمنهاج دين محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيكون المعنى لكل منكم أيها الناس جعلنا هذا الدين الخالص فاتبعوه، والمراد بذلك أنّا أمرناكم باتباع دين محمد؛ إذ هو ناسخ للأديان كلها. ذكره أبوحيان(١٩).

الرابع: وقال المبرد: الشرعة ابتداء الطريق، والمنهاج الطريق المستمر. ذكره أبوحيان(٢٠).

الخامس: وقال ابن الأنباري: الشرعة الطريق الذي ربما كان واضحًا وغير واضح، والمنهاج لا يكون إلا واضحًا. ذكره أبوحيان(٢١).

السادس: قيل: الشرعة الدين، والمنهاج الدليل. ذكره أبوحيان(٢٢).

السابع: قيل: الشرعة النبي، والمنهاج الكتاب. ذكره أبوحيان(٢٣).

الثامن: قال ابن عطية: المنهاج بناء مبالغة من

النهج، ويحتمل أن يراد بالشرعة الأحكام، وبالمنهاج المعتقد أي هو واحد في جميعكم، ذكره أبوحيان وقال: في هذا الاحتمال بعد انتهى(٢٤).

٣- قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة:٤١].

في الآية بدهيتان:

الأولى:

فإن قلت: مافائدة التكرار في قوله: (سَمَّٰعُونَ)؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ﴾ خبرٌ ثانٍ للمبتدأ المقدر مقرِّرٌ للأول ومبينٌ لما هو المراد بالكذب على الوجهين الأولين، واللام مثلُ مَنْ في سمع الله لمن حمِده في الرجوع إلى معنى من أي قبِلَ منه حَمْدَه، و المعنى مبالِغون في قبول كلام قومٍ آخرين. ذكره البيضاوي، وأبو السعود - ورجحه - والآلوسي(٢٥).

الثاني: أن اللام لام التعليل بمعنى سماعون منه عليه الصلاة والسلام لأجل قومٍ آخرين وجَّهوهم عُيونًا ليُبلِّغوهم ما سمعوا منه عليه الصلاة والسلام. ذكره البيضاوي، و أبوالسعود - وتعقبه بأنه لا يكاد يساعده النظمُ الكريم أصلًا - وتبعه الآلوسي(٢٦).

الثالث: أن اللام متعلقة بالكذب على أن «سَمَّاعُوْنَ» الثانيَ مكررٌ للتأكيد بمعنى «سَمَّاعُوْنَ» ليكذبوا «لِقَوْمٍ آخَرِيْنَ». ذكره البيضاوي، وأبوالسعود - وتعقبه بأنه لا يكاد يساعده النظمُ الكريم أصلًا - وتبعه الآلوسي(٢٧).

الثانية:

فإن قلت: ما فائدة تكرير (لهم) مع اتحاد المرجع؟

أجاب عنه أبوالسعود فقال: وتكريرُ (لهم) مع اتحاد المرجِع لزيادة التقرير والتأكيد.

٤- قال الله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ

أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْـنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَـضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْـنَهُم بِٱلْقِـسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة/ ٤٢].

فإن قلت: ما فائدة إعادة قوله: (سَمَّاعون للكذب)، وقد مر؟

قلنا: الجواب عنه أنه كرره تأكيدًا وتفخيمًا وليرتب عليه قوله: (أَكَّالُوْنَ لِلسُّحْتِ). ذكره ابن عاشور، القرطبي، والبيضاوي، وأبوالسعود، والشوكاني[٢٨].

* * *

الهوامش:

(١) الرازي ٣٤١/١١ -٣٤٢؛ البيضاوي ٣١٦/٢؛ أبو السعود ٣٢/٣.

(٢) ابن عاشور في تفسير الآية.

(٣) الرازي ٣٤١/١١ -٣٤٢؛ ابن الجوزي في تفسير الآية.

(٤) الرازي ٣٤١/١١ -٣٤٢.

(٥) الطبري١٢٩/٦؛ البغوي في تفسير الآية؛ القرطبي٦/ ١٤٥؛ الشوكاني تفسير الأية؛ ابن الجوزي في تفسير الآية.

(٦) الطبري١٢٩/٦؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ البغوي في تفسير الآية؛ القرطبي ١٤٥/٦؛ الشوكاني تفسير الأية؛ ابن الجوزي في تفسيرالآية؛ ابن كثير ٨٢/٣.

(٧) البغوي في تفسير الآية؛ الشوكاني تفسير الأية؛ ابن كثير ٨٢/٣.

(٨) الزمخشري في تفسير الآية.

(٩) الزمخشري في تفسير الآية؛ النسفي في تفسير الآية؛ ابن الجوزي في تفسير الآية؛ ابن كثير ٨٢/٣.

(١٠) الثعالبي في تفسيره؛ القرطبي١٤٥/٦؛ ابن كثير ٨٢/٣.

(١١) الطبري١٢٩/٦؛ القرطبي١٤٥/٦؛ الآلوسي١١٧/٦؛ ابن كثير ٨٢/٣..

(١٢) الطبري١٢٩/٦؛القرطبي١٤٥/٦؛ الشوكاني تفسير الأية؛ أبوالسعود ٣٢/٣؛ الآلوسي١١٧/٦؛ ابن الجوزي في تفسير الآية ؛ ابن كثير ٨٢/٣.

(١٣) القرطبي١٤٥/٦؛ الشوكاني تفسير الآية.

(١٤) القرطبي١٤٥/٦.

(١٥) القرطبي١٤٥/٦.

(١٦) القرطبي١٤٥/٦.

(١٧) أبوحيان في تفسير الآية.

(١٨) أبوحيان في تفسير الآية.

(١٩) أبوحيان في تفسير الآية.

(٢٠) أبوحيان في تفسير الآية.

(٢١) أبوحيان في تفسير الآية.

(٢٢) أبوحيان في تفسير الآية.

(٢٣) أبوحيان في تفسير الآية.

(٢٤) أبوحيان في تفسير الآية.

(٢٥) البيضاوي في تفسير الآية؛ أبو السعود ٣٨/٣؛ الآلوسي ١٣٦/٦.

(٢٦) البيضاوي في تفسير الآية؛ أبو السعود ٣٨/٣؛ الآلوسي ١٣٦/٦.

(٢٧) البيضاوي في تفسير الآية؛ أبوالسعود ٣٨/٣؛ الآلوسي ١٣٦/٦.

(٢٨) ابن عاشور في تفسير الأية؛ القرطبي تفسير الآية؛ أبوالسعود ٤٢/٣؛ الشوكاني تفسير الآية؛ القرطبي تفسير الأية.

* * *

الهجرة فاتحة عهد جديد

بقلم: صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف

كانت هجرة رسول الله محمد بن عبد الله من مكة إلى المدينة حادثا خطيرًا أنهى عهدًا وبدأ عهدًا، وهدم نظما وبنى نظما. أنهى عهدًا كانت الدعوة الإسلامية فيه جريمة يعذب بأنواع التعذيب من ينطق بها، ومن يستجيب لها، وكان المسلمون قلة أذلة مضطهدين منبوذين، وبدأ عهدًا صارت الدعوة الإسلامية فيه نورًا وهدى يجهر بها الداعي ويتسابق إليها المستجيبون، وصار المسلمون كثرة أعزة، وكلمتهم هي العليا، وهدم نظما كانت جائرة تهضم فيها الحقوق، وتستباح فيها الحرمات، وبنى نظما عادلة تقيم الحق وتكفل الحريات والحقوق. فالهجرة المحمدية كانت حدًا فاصلًا بين عهدين، وكانت فجرًا طلع بعد ليل طويل حالك الظلمة.

وما أحوجنا أن نرجع إلى سيرة الرسول بعد هجرته لنتعرف كيف بدأ البناء للنظام الجديد، وما أول ما بدأ به في عهده الجديد. وإن لنا في رسول الله أسوة حسنة، وهو أحق من يهتدي بهديه ويسير على سنته، لأنه مؤيد من ربه ولأن خططه نجحت وأثمرت فقويت شوكة المسلمين وعزت دولتهم وانتشرت دعوتهم.

أول ما بدأ به رسول الله في بناء عهده الجديد، توحيد صفوف المسلمين وتطهير نفوسهم وقلوبهم من آثار الاختلاف والعداوة والبغضاء، ففي كتب السيرة أن رسول الله لما وصل إلى المدينة مهاجرًا من مكة، بدأ فبنى مسجده ليكون متعبدًا مجتمعًا للمسلمين، ثم أخذ في توثيق عرى المودة والإخاء بين المسلمين، فآخى بين المهاجرين بعضهم وبعض. وقال لهم: تآخوا في الله أخوين أخوين، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، وقال هذا أخي. وآخى بين الأنصار بعضهم وبعض، وطهر قلوب الأوس والخزرج، مما كان بينهم من الأحقاد التي دامت سنين، وآخى بين المهاجرين والأنصار، وصار لكل مهاجر أخ من الأنصار، له حقوق الأخ وواجباته، وكتب بينهم كتابًا وثق به أخوتهم وقوى وحدتهم، ومما جاء فيه «إنهم أمة واحدة من دون الناس، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وما كان بينهم من حدث أو شجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله».

وبهذا العمل الجليل الذي بدأ به الرسول كوَّن من المسلمين كتلة واحدة، وبنى منهم بناء قويًا

متماسكا يشد بعضه بعضًا، وشعر كل مسلم أنه جندي للإسلام والمسلمين، عليه أن يقوم بكل ما يستطيع من خدمات وواجبات، واتجهت جهود كل فرد إلى الغاية الواحدة وهي نصرة الإسلام وعزة المسملين، واطمأن المهاجرون إلى البلد الجديد والعهد الجديد، ونسوا وطنهم وأهلهم وديارهم وأموالهم، وأنس الأنصار بالمودة بينهم، وبالأخوة الذين جمعهم الله بهم، وأثنى الله عليهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ﴾ (الحشر:٩) وامتن الله على المسلمين جميعًا بنعمة هذا الإخاء والتأليف بين قلوبهم. فقال عز شأنه: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءً فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ (آل عمران:١٠٣) وفي نعمة هذا الإخاء اطمأن المسلمون وأنس بعضهم ببعض، وأمن كل واحد منهم جانب أخيه، وفي ظل هذا الاطمئنان والأمان فرغوا للقيام بما يجب عليهم لدينهم ودولتهم. وكانوا كلمة واحدة وصفا واحدًا فما كان أجدرنا بأن نأتسي بالرسول ونجعل أول ما نبدأ به في عهدنا الجديد تناسى الحزبية والقضاء على الانقسام والاتجاه كتلة واحدة وصفا واحدًا إلى بناء العهد الجديد والوصول إلى الإصلاح المنشود.

وبعد أن عقد رسول الله عقد الإخاء بين المسلمين من المهاجرين والأنصار، وألف بين قلوبهم اتجه إلى أن يؤمن المسلمين ممن معهم في ا لمدينة من غير المسلمين وهم اليهود، فعقد بينهم وبين المسلمين معاهدة قرر فيها لليهود حقوقهم وحرياتهم، وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم وأموالهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

وهذه أول معاهدة عقدت بين المسلمين وغير المسلمين وكان غرض الرسول منها أن يأمن المسلمون جانب جيرانهم ومن يعاشرونهم، وأن لا يكون اليهود شوكة في ظهر المسلمين إذا داهمهم عدو خارجي، وكذلك قصد بها أن ييسر للمسلمين معيشتهم وتبادلهم حاجاتهم؛ لأن اليهود كانوا أصحاب رؤس الأموال، وأكثر الحركة التجارية بأيديهم، فلا بد للمسلمين من معاملتهم والتعاون المادي معهم في تدبير شؤون معيشتهم وتموينهم، وتدبير شؤون التموين للأمة من أول ضرورياتها في حالة السلم والحرب فيعقد، الأخوة بين المسلمين بعضهم وبعض، وبعقد المعاهدة بين المسلمين

واليهود كفل الأمن والأمان في داخل المدينة وتفرغ الرسول والمسلمون للإصلاح الداخلي ومواجهة العدو الخارجي، وهذه خطة سديدة حكيمة لبناء العهد الإصلاحي الجديد.

وبعد أن كوّن الرسول من المسلمين هذه الكتلة وأمنهم ممن معهم بهذه المعاهدة اتجه إلى اتخاذ شعار لعباده المسلمين، يميزهم عن شعائر غيرهم وإلى إبراز شخصية إسلامية لايشارك المسلمين فيها غيرهم، فاتخذ الأذان لكل صلاة من الصلوات الخمس المفترضة. وقد عاش المسلمون بمكة هذه السنين العديدة لايستطيع مسلم أن يجهر بصلاته، وليس لعبادة المسلمين شعار، فلما استقر رسول الله بالمدينة وبنى مسجده وآخى بين المسلمين وعاهد بينهم وبين اليهود، شاور أصحابه في خير ما يعلنون به عبادتهم، ويجتمعون به على أدائها، ويكون شعارًا للمسلمين، وانتهى التشاور باتخاذ الأذان، وأمر رسول الله بلالًا أن يجهر بالأذان، ولم يقبل رأي من أشار باتخاذ الناقوس ولا رأي من أشار باتخاذ البوق، ولا رأي من أشار بإيقاد النار، وكان السبب في رفض الأخذ بهذه الآراء أنها شعائر لغير المسلمين، والمسلمون يجب أن يكون لهم شعار خاص بهم وبهذا كان صوت بلال يدوى بالأذان في يثرب خمس مرات في اليوم والليلة، وبهذا كان كل من في يثرب وضواحيها على ذكر دائم بالإسلام والمسلمين.

وإبرازًا للشخصية الإسلامية وتحقيقًا لاستقلال المسلمين، اتجه رسول الله إلى تحويل قبلتهم عن بيت المقدس، وقلب وجهه في السماء متجهًا إلى الله ليحقق له ما يريد، وقد حقق الله للرسول ما أراد وأمره أن يولي هو والمسلمون شطر المسجد الحرام بدلًا من المسجد الأقصى، وكان هذا في نصف شعبان بعد سنة وأربعة شهور من الهجرة، أي أن المسلمين مكثوا بالمدينة ستة عشر شهرًا، يستقبلون في صلواتهم بيت المقدس ثم حولت القبلة واستقبلوا المسجد الحرام، وبهذا أصبح لعبادة المسلمين شعار خاص وهو الأذان، وقبلة خاصة وهي الكعبة وبرزت شخصيتهم الإسلامية. وقد قال الله تعالى في تحويل القبلة: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ (البقرة:١٤٤) وبين سبحانه أن هذا التحويل كان امتحانًا خصَّ الله به الذين صدقوا في إيمانهم والذين تظاهروا به فحسب، وذلك لأن ضعاف الإيمان من اليهود لما حولت القبلة قالوا: ماولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ وقالوا: رجع محمد إلى دين آبائه. فقال الله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ (البقرة:١٤٣).

وانقضت السنة الهجرية الأولى وأوائل شهور

الـسنة الثانيـة، والجهـود مبذولـة في توحيـد كلمـة المـسلمين وتـأمينهم ممـن معهـم في المدينـة وإبـراز شخصيتهم الإسلامية باتخاذ الأذان وتحويل القبلة.

وبعد هذا اتجه الإصلاح الإسلامي إلى معالجة مشكلة الفقراء والمساكين، ومن القوانين التي تكفل بر الأغنياء بالفقراء وتأمين الفقراء من أن يفتك بهم العدو والعوز وتأمين الأغنياء من أن تمتد إلى أموالهم يد العدوان والطمع، ففي الشهور الأخيرة من السنة الثانية للهجرة أوجب على المسلمين صوم رمضان وصدقة الفطر وزكاة المال. وهذه الواجبات الثلاثة تهـدف إلى غـرض واحـد هـو الرحمـة بـالفقراء ومشاركتهم الأغنياء فيما رزقهم الله.

فأما صوم رمضان فهو عبادة الله بالإمساك عن الطعام والشراب والشهوات من قبل طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وفي هذا الإمساك يشعر الغني بما يشعر به الفقير من جوع وحرمان، فتضعف أنانيته وقسوته وتقوى روحانيته ورحمته، فهي في الحق عبادة لتطهير النفس من الشح والقسوة، ولتذكير القادر بما يعانيه العاجز، وهي لوقاية النفس من الاسترسال في شهواتها وأنانيتها، ولهذا قال الله تعالى في بيان حكمة إيجابها ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لأجل أن تتقوا ما ينتاب النفس من بهيمية واستهتار وأنانية إذا استرسلت في شهواتها وتتقوا ما ينتاب المجتمع من آفات وأخطار إذا لم يرحم أغنياؤه فقراءه ولم تسد فيه روح البر والمعونة، ولهذا كان شهر رمضان في ا لبيئة الإسلامية الصادقة موسم البر والخير، والقادرون يتسابقون في معونة الفقراء والمساكين، وكان رسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة، وكان أجود ما يكون في رمضان.

وأما صدقة الفطر فهي عبادة ببذل جزء من القوت الذي يقتات به الإنسان في أكثر العام، قدحان من قمح أو من شعير أو ذرة أو قيمة هذا من النقود يبذله الإنسان في صباح يوم عيد الفطر عن نفسه وعن زوجه وعن خدمه وعمن يعولهم من أولاده؛ والغرض منها الترفيه في يوم العيد على الفقراء والمساكين وتمكينهم من أن يشاركوا القادرين في مسرتهم وابتهاجهم، حتى لا يكون التفاوت بينهم في ذلك اليوم مبعث حقد أو ضغينة أو خطور أي خاطر خواطر السوء، ولهذا وصف رسول الله صدقة الفطر بأنها طهرة، أي تطهر النفوس من الشح والبخل والأنانية، وتطهر المجتمع من الأنات والشرور والمبادئ الهدامة.

وأما زكاة المال فهي حق معلوم فرضه الله للفقراء والمساكين فيما يملكه الأغنياء من نقود ومن سوائم ا لإبل والبقر والغنم، وفي عروض التجارة، وفيما تخرجه الأرض من زرع، وما تثمر الأشجار من ثمار، وقد شرعها الإسلام بنظام حكيم، فيه توفيق بين مصالح الأغنياء ومصالح الفقراء، فشرط

شروطًا فيمن تجب عليه، وفي المال الذي تجب فيه، وحدد مقدار الواجب، وجعل بعض الواجب من رأس المال النامي، وبعضه من النماء والإيراد، وجعل تنفيذ بعض الواجب إلى الغني نفسه عبادة منه، وتنفيذ بعضه إلى الحكومة تنفذه، وأشار سبحانه إلى أن هذا حق للفقير لامنحة، فقال: ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ (المعارج:٢٤-٢٥)، وقال: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ (الأنعام:١٤١) وأشار إلى أن المال مال الله وأن الأغنياء مستخلفون فيه، وعليهم أن يشاركوا فيه المحاويج من عباد الله، فقال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ﴾ (الحديد:٧) وأشار إلى أن الحكمة في هذا الإيجاب تطهير نفوس الأفراد، وتطهير المجتمع من الشرور والآفات، فقال: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة:١٠٣) أي تطهر الأغنياء من الشح والقسوة والأنانية والحرص، وتطهر الفقراء من الحقد والطمع وخواطر السوء، وتطهر المجتمع من العدوان والمبادئ الهدامة، فهي في الحقيقة صيانة للمال ولرب المال، وصيانة لنفس الفقير من أمراض السوء ولهذا قال رسول الله ﷺ: «حصنوا أموالكم بالزكاة» وهي نظام حكيم عادل لو وجد من دين المسلم حافزًا على تنفيذه بوصف أنه عبادة وفريضة ودعامة من الدعائم الخمس التي بني عليها الإسلام، ووجد من الحكومات الإسلامية مشرفا وحارسًا على هذا التنفيذ.

فمن رجع إلى تأريخ هجرة الرسول والمسلمين من مكة، وتتبع ما بدئ به في بناء العهد الإسلامي الجديد، يتجلى له أن أول أساس وضع لهذا البناء هو توحيد كلمة المسلمين والتأليف بين قلوبهم وتأمينهم من جانب عشائرهم، وهذا يجب أن يكون أول أساس في بناء أية دولة؛ وكل بناء يقوم على خلف وانقسام وأحزاب وعصبيات، فهو بناء على غير أساس، وأن أول ما يجب بعد هذا هو إبراز شخصية الأمة ودينها، لأن هذا يشعر بمهابتها وعزتها، ولا أمة بدون شخصية تعتز بها، وأن أول ما يجب بعد ذلك تحديد علاقة الفقراء بالأغنياء حتى لا يكون الفقراء في المجتمع أعضاء معرضين للآفات، فيتعرض المجتمع كله للآفات، والشجرة كلها قد تشل إذا أصاب الشلل فرعًا منها، والبناء كله قد يختل إذا أصاب الخلل جزءًا منه.

بعد بناء الأسس القويمة المتينة شرع الإسلام النظم العادلة لتنظيم الزواج والطلاق والمعاملات المدنية، والتوثيق للدين وغير هذا، وكان في تشريعه حكيما يتدرج ويهدم ما لا سبيل إلى بقائه، ويعدل ويهذب ما تتحقق المصلحة بتعديله وتهذيبه، وبهذه الحكمة والتؤدة قامت الدولة وعلت كلمة الدين.

* * *

دروس مستفادة من الهجرة

بقلم: **الأستاذ محمود مصطفى الأعصر**

أخذ الرسول ﷺ يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج، ولقي طائفة من أهل المدينة قرأ عليهم شيئًا من القرآن، فشرح الله صدورهم للإسلام، وفشا في المدينة أمرهم فبايعه اثنا عشر رجلا منهم على الإسلام حتى إذا استدار العام قدم كثير ممن أسلم، وواعدوا النبي ﷺ مقابلته ليلًا عند العقبة الوسطى، فقابله ثلاثة وسبعون رجلًا وامرأتان هما: نسيبة بنت كعب وأسماء بنت عمرو.. وعلمت قريش بمبايعة الأنصار للنبي ﷺ، وأصبح للرسول ﷺ الكثير من المؤمنين في المدينة، حتى تهيأ الجوُّ له فيها، وفتحت المدينة قلبها للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الكتمان والسرية من أسباب نجاح الهجرة:

حينما عزم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الهجرة أحاط نفسه بسرية تامة، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يفصح لأبي بكر عن أنه هو المصاحب له في هجرته إلا وقت التنفيذ، وكان الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يريد الهجرة قبل ذلك، فكان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول له: «لا تعجل يا أبا بكر لعل الله يجعل لك صاحبا» بيد أن الرسول كتم عن أبي بكر من سيكون هذا الصاحب، وعندما أنجى الله تعالى رسوله من سيوف المحاصرين لبيته، وذهب الرسول إلى أبي بكر دخل عليه بيته فوجد عنده أهله، فقال الرسول لأبي بكر: «أخرج عني من هنا» وهذه من رسول الله مبالغة في السرية، وأخذ بمنتهى الكتمان والحيطة، ولقد كانت عائشة من بين الموجودين وكانت زوجته في ذاك الوقت، ولهذا قال له أبوبكر: «يا رسول الله إنما هم أهلك».

ويخرج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه متخفيين عن أعين الناس ليلًا، ولا يسلكان الطريق المعهود حيث الذهاب شمالا إلى المدينة؛ بل يسلكان جنوب مكة إلى غار ثور..، وتقول بعض الروايات: إنه عليه الصلاة والسلام خلع نعليه وسار على أصابعه حتى لا يظهر أثر قدميه، وما زال هكذا حتى دخل وصاحبه الغار.

من دروس الهجرة الاعتماد على الله:

شأن المؤمن الصادق أن يعتمد على الله تعالى

في كل أموره، كما وصف الله تعالى المؤمنين في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾، فالتوكل على الله، والاعتماد عليه، والوثوق به أعلى مقامات التوحيد..، وفي هجرة الرسول ﷺ والمهاجرين الأولين من أصحابه آيات كبرى من آيات الإيمان القوي، وصورة صادقة للتوكل على الله والاعتماد عليه..

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ (التوبة: ٤٠) وعندما لحق به سراقة يريد قتله، وأصبح على مقربة منه..، لقد كان من مقتضى كل تلك الاحتياطات الهائلة التي قام بها أن يشعر بشيء من الخوف إذ ذاك؛ ولكننا رأينا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لم يكن يلتفت إطلاقًا لينظر من هذا الذي يجد في اللحاق به؟ بل كان مستغرقا في قراءته ومناجاته مع ربه؛ لأنه يعلم أن الله الذي أمره بالهجرة سيمنعه من الناس ويعصمه من شرهم.

من دروس الهجرة: نصر الله تعالى لكل السالكين في طريق الدعوة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ (القصص:٨٥).

خطاب موجه إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وهو مخرج من مكة مطارد من قومه وهو في طريقه إلى يثرب، لم يبلغها بعد..، إنك اليوم مخرج ومطارد؛ ولكنك غدًا منصور، وهكذا شاءت حكمة الله أن ينزل على عبده هذا الوعد الأكيد في ذلك الظرف، ليمضي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في طريقه آمنًا واثقًا مطمئنًا إلى وعد الله الذي يعلم صدقه، ولا يستريب لحظة فيه.

وإن وعد الله لقائم لكل السالكين في الطريق، وإنه ما من أحد يؤذى في سبيل الله فيصبر ويستيقن إلا نصره الله.

وصدق الله رسوله بعودة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ليرد لمكة كرامتها، ويمحو من فوق الكعبة أصنام الشرك فيها، ويرسي قواعد التوحيد.

من دروس الهجرة حب الوطن

إن حب الوطن من أعظم مظاهر الإيمان بالله تعالى، فيجب على كل مؤمن بالله رب العالمين أن يحب وطنه، ويتمنى له كل ما تصبو إليه نفسه، وها هو الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كلما بعد عن مكة إلى المدينة بضع خطوات يتلفت إلى وطنه مكة وقلبه متعلق بها قائلا: «والله أني لأخرج منك، وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله، وأكرمها على الله تعالى، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت».

دروس للشباب في الهجرة

ولشباب اليوم.. أمل الأمم ودرعها الواقي أن يأخذ الدرس الشافي الكافي من زعيم الشباب وإمام الفتيان علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي يحمي صاحب الدعوة ويفديه بنفسه.. ويذود عنه.. وهو يعلم الخطر المترتب على ذلك..، ومن عبد الله بن أبي بكر الصديق الذي كان يستطلع أخبار قريش بمكة، والوقوف على رد الفعل الذي أحدثه خروج النبي سرًّا.

وإذا تأملت فيمن كان حول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إبان دعوته ونضاله وجدت أن غالبيتهم العظمى كانوا شبابا، لم يتجاوزوا المرحلة الأولى في عمر شبابهم، ولم يألوا جهدا في تجنيد كل طاقاتهم وقوتهم من أجل نصرة الإسلام وإقامة مجتمعه.

دروس للمرأة في الهجرة

هاهي أسماء فدائية الإسلام الأولى تأتي النبي ﷺ وصاحبه بالماء والزاد إبان اختفائهما عن أعين قريش، وظلت على ذلك ثلاث ليال متعاقبة، تقتحم الصحراء الموحشة في رهبة الظلام، وهي صغيرة، ولا تبالي العيون..، وقد ذهب إليها أبو جهل وحاول أن ينتزع منها اعترافًا بمكان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه، فلم يستطع أن يظفر منها بجواب، رغم أنه استعمل معها القسوة والغلظة، ولطمها على وجهها لطمة شديدة طار منها قرطها، فلم يتسرب إليها الوهن وظلت صامدة محتفظة بالسر.

من دروس الهجرة: الاستعانة بغير المسلمين فيما دون القتال:

استعان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على معرفة مسالك الصحراء بعبد الله بن أريقط وكان مشركا ليدله على الطريق بعد أن توسم فيه الصدق والأمانة.

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعان أيضًا في غزوة الحديبية سنة ٦هـ ببشر بن أبي سفيان عينًا على قريش ليأتيه بأخبارهم، وبشر كان مشركا من قبيلة خزاعة.. لم يسلك ابن أريقط الطريق المألوف مصعدًا إلى الشمال؛ بل سار منحدرًا إلى الجنوب أسفل مكة موليًا وجهه نحو اليمن، ثم توجه شرقًا إلى تهامة، حتى إذا اقترب من شاطئ البحر وبعد عن الطريق المألوف اتجه شمالًا في محاذاة الشاطئ، وهو حريص أشد الحرص على أن يبتعد عن العيون ما استطاع..، وعبد الله بن أريقط أخذ يهم في السير، وهو يرتجز، ولعل هذا كان نوعًا من التضليل أريد به ألا يفطن إليهم أحد من القوم؛ فإن الذي يرتجز ويعلن عن نفسه في السير لا يمكن أن يكون هاربا.

من دروس الهجرة: المحبة الشديدة للرسول ﷺ

استقبلت المدينة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رجالا ونساء وأطفالا، لقد كانوا يخرجون كل يوم إلى ظاهر المدينة ينتظرون تحت لفح الشمس وصول رسول الله ﷺ إليهم، حتى إذا هب النهار ليدبر عادوا أدراجهم، ليعودوا إلى الانتظار صباح اليوم الثاني، فلما طلع الرسول عليهم جاشت العواطف في صدورهم، وانطلقت ألسنتهم تهتف بالقصائد والأهازيج فرحًا لمرآه عليه الصلاة والسلام ومقدمه عليهم، ولقد بادلهم الرسول نفس المحبة، ومحمد ﷺ محب ودود؛ أطاع الله تعالى كثيرًا؛ لأنه أحبه كثيرًا، وبر الناس كثيرًا؛ لأنه يحبهم كثيرًا..

أحب الله تعالى..، وأحب الناس..، وأحب الزمان و المكان، وأحب كل شيء في كون الله تعالى الرحيب، ولقد انتصر حبه العظيم الصادق، وبلغ رسالته للناس جميعًا، ويدعو محمد الناس كي يحب بعضهم بعضا؛ بل جعل الحب آية الإيمان فقال: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا.. ولا تؤمنوا حتى تحابوا».

من دروس الهجرة: عمارة المساجد:

وفي عناية الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بإنشاء المسجد عقب استقراره بالمدينة بعث للنفوس على العناية بعمارة المساجد..، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ (التوبة:١٨).

من دروس الهجرة: التعاون والوحدة والأخوة الصادقة:

في مؤاخاة الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للمهاجرين والأنصار (أهل المدينة الأول) عقب استقراره بالمدينة توجيه قوي إلى تحقيق الوحدة بين الأمة، فالوحدة هي القوة والعزة والحرية، وهي سبيل كل خير..

قال الله تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر:٨-١٠).

* * *

التسامح في التصور الإسلامي

بقلم: الدكتور/ أمان قحيف

اقتضت طلاقة قدرة الله تبارك وتعالى أن يتحرك التأريخ الإنساني – في قضاياه الكبرى – وفق مراد الله عزَّ وجلَّ لا وفق مراد الإنسان ورغباته وتطلعاته، ولأن العقل البشري عاجزٌ بطبيعته وتكوينه عن الوقوف على حكمة الله تبارك وتعالى في كل شيء، فقد لا يتعجب المرء من شيء قدر تعجبه من أحداث الدنيا ومسيرة التأريخ، وكم هي عجيبة تقلبات الحياة وتحولاتها إذا نظرنا إليها من خلال زوايا رؤيتنا البشرية المحدودة، بقدراتنا الذهنية وإدراكاتنا العقلية، وليس من المنتظر أو المتوقع أن تأتي تلكم التقلبات والتحولات وفق المنطق الإنساني والتفكير البشري القائم على أسس المعرفة الإنسانية وحساباتها بشكل دائم ومستمر، وإلا ما كانت تقلبات أو تحولات؛ بل تكون – عندئذ – تطورات تطبيعية، ومسيرة حياتية، وحركة آلية للتأريخ انبثقت من تفاعلات اجتماعية مدروسة، وسلوكيات إنسانية معلومة ومفهومة ومتحقق من ديمومتها، وصيرورتها، وأهدافها، وغاياتها، يبدو أن الواقع يؤكد أنه كثيرًا ما تفاجئنا الأحداث بما لا نتوقعه، وتداهمنا الظروف بما لم نحسب حسابه، أو نستشرف قدومه بحال من الأحوال.

والحق أن دراسة مسار الحضارات وتأريخ الأمم تكشف لنا النقاب عن وقوع العديد والعديد من التحولات الطارئة والتقلبات المفاجئة في حركية المجتمعات وتفاعلاتها، حتى ليكاد المرء يخال أن المفاجآت التأريخية هي من سنن الله تبارك وتعالى التي لا تجد لها تبديلًا ولا تجد لها تحويلًا: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ (فاطر:٤٣)، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ (الأحزاب:٦٢).

وكثيرًا ما يظن صاحب الحق أن أحداث التأريخ قد سارت أو تحركت وفق مراد خصومه أو منافسيه، فيتألم لذلك أشد التألم ويحزن لذلك أشد الحزن، وربما يكره الظروف والأحداث التي جاءت

– بحسب ظنه – مخالفةً لرؤاه وتصوراته وتطلعاته وحقوقه ومستحقاته، وربما يجزم بأنها تعاطفت مع خصومه أو منافسيه.

التمسك بالرأي

ولنا أن ندرك أن أحداث الدنيا وتحركات التأريخ لن تأتي دائمًا وفق هوانا، أو متطابقة مع تطلعاتنا.. بالتالي فهي غير مضمونة المسار وغير معروفة التوجه، وإلا ما سميت تقلبات وتحولات مفاجئة وغير منطقية بحسب التفكير الإنساني، بينما الواقع أن لها قانونها الذي يرجع في الأصل إلى إرادة الله الذي قد تغيب عنا حكمته في تلك الأحداث لبعض الوقت الذي قد يطول وقد يقصر.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: ما أفضل كيفية يمكن المرءَ أن يتعامل بها مع مثل تلك المواقف والأحداث؟ هل يجب أن يتمسك برأيه ورؤيته ويصرّ على أنها الأصح والأصوب طوال الوقت؟ وبالتالي يتشدد لوجهة نظره وموقفه زاعمًا أنه على صواب والآخرين على خطأ؟ أم يجب أن يتحلى بالتسامح ويقدر الظرف الذي يمر به الآخر، والصعوبات التي تواجهه، والضغوط التي تمارس عليه من هنا وهناك وبالتالي يلتمس له العذر؟

قد يكون من المتوافق عليه أن من حق كل طرف أن يحافظ على حقوقه ويتمسك بالدفاع عنها والذب عن حماها ما استطاع إلى ذلك من سبيل بالطرق الشرعية والمشروعة التي لا تدينه، ولا تجعله يتجاوز الحد المسموح به دينيًا وقانونيًا وأخلاقيًا.. إن الدفاع عن الحق أمر مكفول للجميع لا مرية في ذلك ولا شك، لأن الدفاع عن الحق هو السبيل الوحيد إلى استعادته والمحافظة عليه؛ لذلك قيل: لا يضيع حق وراءه مطالب، غير أن هذا الدفاع له سبله وضوابطه التي لا يجب تجاوزها بأية حال من الأحوال، أو أية صورة من الصور؛ لأن الخروج عن تلكم الضوابط أو تجاوزها يؤدي إلى ضياع هذا الحق، أو على الأقل يعطي للآخرين مبررًا لرفضه أو الاجتراء عليه، مستغلين في ذلك حياد صاحب الحق عن المنهج القويم في المطالبة بحقه عند محاولته استرداد ما هو له.

آلية التوافق

وإذا كان من حق المرء أن يدافع عن حقه ومطالبه فإن الأمر يقتضي الوعي بالمدى الذي يمكن أن يصل إليه هذا الدفاع كي لا تتطور الأمور والأحداث إلى مراحل أو أشكال يكون من شأنها

إحداث ضرر أكبر – من حيث القيمة والمقدار – من الحق المطلوب إرجاعه أو الهدف المطلوب الوصول إليه.

وأيًا ما كان الأمر فإن ثمة آلية قد وضعها الدين الإسلامي الحنيف للوصول إلى درجة من التوافق المجتمعي، وجعلها أداة لرفع التناقضات وفض الاشتباكات بين المجتمعات والأفراد والأمم.. ولقد جعل الإسلام تلك الآلية من قيمه العليا ومبادئه الأخلاقية السامية.. إنها «العفو والصفح والتسامح».

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في أكثر من موضع، نذكر منها أن الله عز وجل امتدح المتسامحين واعتبرهم من المخلصين لدينهم وعقيدتهم، حيث قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٤).. من ثم فأهل العفو والتسامح في الإسلام هم من أهل الإحسان الذين يحبهم الله عز وجل، ومن أحبه الله تعالى أكرم نزله، وأحسن مثواه، وأنزله منازل أهل البر والتقوى.. وورد في القرآن الكريم أيضًا قول ربنا سبحانه وتعالى في حض المؤمنين على العفو والتسامح: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:١٠٩).. وحتى أولئك الذين خانوا ولم يدركوا جوهر العقيدة وقصروا في أداء ما عليهم من واجبات تجد القرآن الكريم يوصي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن بعده المسلمين جميعًا بالصفح عنهم وعدم الإصرار على معاقبتهم أو الانتقام منهم، قال عز وجل: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:١٣).. ثم إن الله تبارك وتعالى يكرر الأمر لنبيه ﷺ بالعفو في موضع آخر حيث يقول له: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (الأعراف:١٩٩).

ويزاد على ذلك أن الله عز وجل أكد على الأخذ بمبدأ العفو والصفح عمن أساء لنا، وربط بين التسامح والعفو من جهة، وبين مغفرته سبحانه وتعالى لذنوب عباده وسيئاتهم من جهة أخرى، قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور:٢٢).

هي دعوة إذن إلى اجتناب الانتقام وتقليد سلوك الآخرين في التطاول على الناس أو الإساءة

إلـيهم.. ويـتم هـذا الأمـر باجتنـاب الـسير وفـق منـهجهم أو التعامـل وفـق طـريقتهم، وللمـسلم أن يلجأ إلى العفو والتسامح – حتى وإن كان صاحب حق – سيما إذا كان هذا التسامح لن يؤثر على دينه وقيمه الإسلامية الرفيعة.. أما إن كان هذا العفو سيؤدي إلى ضياع بعض الحقوق الدنيوية والمكاسب الحياتية، فإن الأمر يعد – من الوجهة الشرعية – هينًا ويمكن التغاضي عنه سيما إذا أدركنا أن الدنيا برمتها لا تساوي عند الله تعالى جناح بعوضة، ولو كانت تساوي ذلك ما سقى الكافر منها شربة ماء. كما علمنا ذلك رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال ربنا سبحانه وتعالى في حض المؤمنين على العفو والتسامح، منبهًا إلى أن صاحب الحق الذي يعفو ويصفح لن يتركه الله تبارك وتعالى، ولن يتخلى عنه؛ لأن الله – عزّ وجل – من أسمائه «العدل»، لذلك فهو سبحانه وتعالى له تصاريفه في كونه التي قد تخفى علينا ولا ندركها، لأنها تتحرك وفق القانون الإلهي الرباني لا وفق قانون البشر المحدود بإمكاناتهم العقلية، قال تعالى فيما يشير إلى هذا المعنى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:١٠٩).

وإذا كان القرآن الكريم قد حض المسلمين على العفو والصفح والتسامح فإنه أكد في ذات الوقت – وفي أكثر من موضع – أن الله تبارك وتعالى عفو غفور، ومن أسمائه الحسنى «العفو» و«الغفور»، يقول ربنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء:٤٣)، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء:٩٩).. وتلك مسألة من شأنها الأخذ بيد المسلمين جميعًا إلى الاتجاه صوب ممارسة العفو والصفح والتسامح مع الآخر حتى وإن تطاول وتجاوز حده. وإلا عن ماذا سيكون الصفح وعن أي شيء سيكون العفو؟

وهكذا تقوم فلسفة التسامح في الإسلام على ممارسة اللين مع من أساؤوا، وممارسة العفو عمن أخطؤوا؛ وذلك لأن في التسامح دلالة على سعة الأفق ورحابة الصدر، وفي العفو قدرة على ضبط الانفعالات الانتقامية.. وتلك مسائل وضعها الإسلام ضمن منظومته القيمية والأخلاقية.

من هنا نستطيع أن نقرر أن الإسلام حض المسلمين في كل مكان وزمان على اعتماد التسامح كمنهج وأسلوب ناجع في حل المشكلات ورفع التناقضات بين الجميع، وتلك هي شيمة كل

الرسالات السماوية الكبرى، حيث يقف المرء في العهدين القديم والجديد على العديد من النصوص التي تؤكد على ضرورة الأخذ بمنهج العفو والصفح والتسامح، وتبرز عظمة توجيهات الإسلام، غير أن عشاق التشدد وأصحاب الميول الإقصائية هم من ذهبوا إلى زعم أن الأديان لا تحض على التسامح والتآخي الإنساني، وزعموا أن بعضها يعمل على إقصاء بعضها الآخر، وما قالوا بذلك وما زعموه إلا ليجدوا تربة مناسبة لنشر فكرهم المادي وتياراتهم الإلحادية.. ومعلوم أن تلك الأمور لا تسود ولا تنتشر إلا في ظل غياب الدين الصحيح والتدين الوسطي المعتدل.

وثمة أهمية لأن نشير في هذا السياق إلى بعض العوامل التي من شأنها دفع الإنسان إلى ممارسة التسامح على مستوى الفكر والممارسة أو القول والعمل:

أولًا: الحرص على مرضاة الله تبارك وتعالى، فالله عز وجل قد حض على التسامح وحبب الناس فيه؛ بل أمرهم به من خلال العديد من الآيات القرآنية التي أشرنا إليها.. ونشير إلى أن الأحاديث النبوية أكثر من أن تحصى في هذا السياق، وسيرة رسول الله ﷺ نموذج يحتذى في العفو والصفح والتسامح مع الآخرين، والمعلوم أننا أمرنا بالتأسي به ﷺ في كل شيء، فهو القدوة الحسنة والمثل الطيب في السلوكيات للمسلمين جميعًا؛ بل ولغير المسلمين من ذوي العقول الناضجة والبصائر المستنيرة.. قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١).

مراد الله

ثانيًا: الثقة في أن تحول الدهر وتبدل الزمن لا يحدث إلا وفق مراد الله تعالى، فلا يقع في كون الله إلا ما يريد، مع الثقة بأن لله تعالى في كل قضاء حكمة.. إن إدراك المسلم لهذا المعنى يجعله يتسامح ويعفو من دون إحساس بأنه قد سلب حقه أو نهب مستحقه.. فتصاريف الله في الكون تخضع لمشيئته ومراده سبحانه وتعالى، وليس بالضرورة أن يتوافق ذلك مع مرادات البشر ورغباتهم أو مشيئتهم.. وصدق قول من قال: أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد.

ثالثًا: الوعي بأن اللحظة الراهنة ليست آخر اللحظات، والفرصة المتاحة الآن ليست نهاية التأريخ، مع إدراك أن الزمن لن يتوقف على حادث

معين، أو أن قوانين الوجود ستختل إذا تسامحنا، أو أن الكرة الأرضية ستكف عن الدوران، إذا تجاوزنا عن خطأ الآخرين.

ويجب أن يرتبط ذلك بالوعي بأن التعويض ممكن إذا توافرت أسبابه وعوامله – التي من أبرزها الإخلاص والاجتهاد، الأمر الذي من شأنه تخفيف حدة الألم عن النفس الإنسانية إذا ضاعت عليها فرصة أو أخفقت في تحقيق أهدافها ونجح غيرها في ذلك.

رابعًا: التعلم من التأريخ وقراءته بدقة ووعي وتأمل وتدبر، امتثالًا لقول الله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ (الحشر:٢)، وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ (إبراهيم:٥).

خامسًا: الثقة بأن نتائج التسامح أفضل بكثير من النتائج التي تترتب على التشدد والتزمت وعدم المرونة.. إذ لم يثبت التأريخ عبر كل مراحله الطوال أن تغييب التسامح والصفح أتى بنتيجة إيجابية؛ بل كل المواقف التأريخية والحياتية تثبت عكس ذلك تمامًا.

سادسًا: إدراك أهمية الحوار: فالتسامح هو وليد التفاهم، الذي يؤدي بدوره إلى إيجاد حوار حضاري بين طرفي كل نزاع، والحوار هو آلة العقل الأولى في حل المشكلات وتقريب وجهات النظر، إذا ما قام على الموضوعية والحيادية وتخلص من آفاته المتمثلة في الجدل البيزنطي والتماحكات اللفظية.

العقل الراشد

سابعًا: الوعي بأن التسامح فعل إنساني صرف، فالإنسان أو التيار الفكري الذي ينتهج التسامح منهجًا وطريقًا في تعامله مع القضايا والأحداث هو تيار إنساني بامتياز؛ لأن التسامح صفة العقول الراقية والأذهان الناضجة، أما العقول الضيقة العاجزة عن الانفتاح فهي عقول أقل قدرة على ممارسة التسامح مع الآخرين؛ لأن العفو والصفح يمثلان الترجمة الحقيقية والفعلية لقبول الآخر والاقتناع بحقه في الحياة والوجود بجانب الأنا أو الذات.. وإذا اقتنع المرء بحق الآخر في الوجود فسيقتنع بالضرورة بحقه في أن يصيب ويخطئ. وما دام الخطأ واردًا فإن العقل الرشيد يقول بضرورة ممارسة التسامح، وهذا بالضبط ما أراده الإسلام.

ثامنًا: توافر الجو العام الذي يحض على التسامح ويعرف للمتسامحين حقهم ونبل أخلاقهم.

* * *

رجولة الرسول

بقلم: فضيلة الشيخ أحمد فهمي أبوسنة

نعنى بالرجولة مقومات الإنسان الكامل من العــزة والــشجاعة والنجــدة والــشهامة والإبــاء والكرامة والحكمة والرحمة. والصبر والثبات في شدة الملمات وقسوة الحادثات، وقد كان محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل أولئك بالمحل الأرفع. ألقى على الناس بأقواله وأفعاله في صفات الرجولة أنفع الدروس، وضرب للأمة أعلى المثل، وظل وسيظل ما بقي الدهر أستاذ العالمين وإمام الرجال في مواقف البطولة والشرف. تلقى المحن والشدائد والأذى والاضطهاد والكيد بعزم جبار وصبر شديد وثبات لا يضارع، فلم يهن ولم يستسلم ولم يمالئ في الحق أحدًا من الناس.

حصرته قريش مع عشيرته في شعب بني هاشم، وضيقوا عليهم، وقاطعوهم ومنعوا عنهم كل وارد حتى أكلوا أوراق الشجر، فلم تلن منه قناة ولم يرهبه وعيد.

عرضوا عليه أن يملك عليهم على أن يترك دعوته التي صدعهم بها، فأبى إباء الرجل الكامل، وقال كلمته المشهودة: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه». كان أشجع الناس في السلم والحرب. فقد سمع أهل المدينة مرة جلبة فركب فرسه غير مسرج فسبق الناس إلى الصوت وحده، وبينما هو راجع إذ لقيه الناس فزعين وإلى مكان الخوف من المدينة متجهين فقال لهم: «لن تراعوا» فعجبوا من سبقه وشجاعته.

ويقول علي – وهو من هو شجاعة وبطولة – كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله ﷺ.

وموقفه في حنين لا ينساه التأريخ حين أجلت عنه المسلمين ثقيف وهوازن بخيلهم ورجالهم، وكانوا أشد القوم في الحرب، وتفرق جنده من شدة ضغط الأعداء وقوتهم، فقد ترجل عن بغلته البيضاء واستقبلهم بنفسه وهو يقول: «أنا النبي لا كذب. أنا ابن عبد الملب».

رجولة زادته في أعين القوم عزة ومهابة واضطربت منها قلوبهم فولوا الأدبار.

وأين من هذا موقف قواد الحروب اليوم الذين لا يكونون إلا خلف الصفوف حيث العصمة والأمن.

كان عليه السلام رجلا في الرخاء والشدة لم تعرف رجولته الشطط والتهور. يعفو ويصفح ما كانت الإساءة إلى شخصه الكريم.

يأتيه أعرابي يسأله فيجذ به من ردائه حتى يؤثر في صفحة عنقه ويقول له في جفاء البادية: احملني فإنك لا تعطيني من مالك ولا من مال أبيك، فيعفو ويصفح ولا يمنع عنه الرفد؛ بل يعطيه حتى يرضى.

فإذا كانت الإساءة إلى دين الله، والعدوان على محارم الله اشتد غضبه وامتلأ قلبه الشريف غيرة على الإسلام، فأقام أحكامه ونفذ حدوده وانتصر لله تعالى.

ولم يكن يزدهيه الزهو عند الانتصار أو يدفعه الفوز إلى القسوة والانتقام؛ بل كان يقف عند الحد الذي تزول معه الفتنة ويقوم به أمر الدين ثم يعفو ويصفح. انظر ما فعله بأسرى بدر فقد اختار الفداء ولم يقتلهم مع ما كان منهم من النكاية بالمسلمين.

وانظر إلى ما كان منه يوم فتح مكة حين انتصر على قريش وأمكنه الله من رقابهم حيث قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» كان غيورًا على الحق، يروى أن الصحابة حين عجبوا من غيرة سعد بن عبادة على محارم الله قال لهم: «تعجبون من غيرة سعد فأنا أغير منه والله أغير مني».

ولما أخره الأعداء عن الصلاة في غزوة الخندق غضب ودعا عليهم بقوله: «اللّٰهم املأ بيوتهم نارًا».

وكان رجلا في وفائه للعدو بعهده، وللصديق بوعده، فقد روي أنه عليه السلام حين كان يقسم بعض الغنائم يوم خيبر قال له رجل: يارسول الله، اعدل. فقال له: «ويحك فمن يعدل إذا لم اعدل خبت وخسرت إن لم أعدل» فقال عمر دعني أضرب عنقه فإنه خائن، فقال عليه السلام: «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي».

تلك صفات من المجد والعظمة والرجولة الحقة لم يبلغها قبله عظيم ولم تجتمع كلها في رجل واحد، وحسبه ما وصفه الله به في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وكان لهذه الرجولة والعظمة أثرها في تربية أصحابه الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فصنعتهم رجالا أبطالا وقوادًا عظاما، وخلقت من أتباعه الأبطال في السياسة والقضاء والإدارة وفن الحكم، فكان منهم خليفته الأول أبوبكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي تجلت عظمته في حروب أهل الردة حتى حفظ الدين والملة وقضى على الفتنة بعزيمة جبارة ويقين وثبات منقطع النظير. وفي مواقفه العظيمة الخالدة.

وكان منهم خليفته الثاني عمر بن الخطاب الذي يضع للناس أسس الشخصية القوية فيقول: يعجبني الرجل إذا سيم خطة خسف أن يقول: «لا» بملء فيه ويضع دستور الحكم العادل فيقول: «اجعلوا الناس في الحق سواء قريبهم كبعيدهم، وبعيدهم كقريبهم إياكم والرشا والحكم بالهوى».

ما أحوج الناس في هذا العصر إلى رجولة محمد وأصحابه.. يقاومون بها هذا الانحلال الخلقي الذي دب دبيبه في النفوس، وهذا التخاذل والتردد والفساد الذي نشأ في المجتمع.

التعامل مع الوعود الربانية بين التصديق والتضييق

بقلم: د. محمد علي يوسف

تعالت الصيحات في شعاب مكة وطرقاتها الضيقة: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ (الروم:٢-٤).

- من هذا؟!

- الصوت ليس غريبًا.

- لماذا يصيح ابن أبي قحافة بهذا الشكل؟

- وكيف علم أن الروم قد غلبت؟

- إن بيننا وبين الفرس والروم ومعاركهم مئات الأميال!

- وكيف علم أنهم سيُغلبون من جديد بعد بضع سنين؟

- لابد أنها تلك الكلمات التي يرددها صاحبه على مسامعه صباحًا ومساءً ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ (الروم:٢-٤). استمرت الصيحات تجلجل بثقة في أرجاء مكة.. كرر الصديق أبوبكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ صيحاته المستبشرة بالآية الكريمة في طرقات مكة، والملأ من المشركين يضربون كفًا بكف.. كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرة للروم، وكانت قريش تحب ظهور فارس؛ لأنهم وإياهم قوم وثنيون ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث ولا نشور، لذا فقد وقفوا لأبي بكر مشككين يقولون: فذلك بيننا وبينكم.. زعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين.. أفلا نراهنك على ذلك؟

قال بيقين المؤمن المصدق بموعود الله الذي لايهزه تشكيك ولا يزعزعه مراء أو تسفيه: بلى.

قبل الصديق رهانهم، وكان ذلك قبل تحريم الرهان، فتراهن أبوبكر والمشركون وتواضعوا قيمة الرهان؛ لكنهم طلبوا منه تحديدًا قاطعًا يجزم فيه بالعام الذي تنتصر فيه الروم على عدوها.. وهنا كانت الزلة ولا معصوم إلا الأنبياء.. لقد كان الوعد الرباني في الآية على التراخي ولم يكن على التعيين، لكن أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سمى أجلا وحدد موعدا، وما كان له أن يفعل، لكن يقدر الله أن يزل تلك الزلة،

ليتعلم المسلمون درسًا ما أعظمه.. لقد حدد البضع هنا بست سنين، وراهنهم الصديق على ذلك.

ومــضت الأعــوام، وحــدثت المتغــيرات، ووقعت الوقائع، ثم جاء أجل الرهان، ولم تنتصر الروم رغم مضي الأعوام الستة كما وعد أبوبكر.

تهلل المشركون وظنوا أن قد أثبتوا خللا في وعد الله، فأخذوا رهان أبي بكر فرحين بباطلهم، مستبشرين بتكذيبهم، ودخل على الصديق يومئذ غم عظيم؛ لكن اليقين بموعود الله أبدًا لم يهتز.. إن الذي زل هو الصديق وهو بشر يخطئ ويصيب، على مكانته وقدره، ولعله تسرع لشدة يقينه وتصديقه؛ لكن المسلمين – كما في رواية الأثر عند الترمذي بسند صحيح – قد عابوا عليه تحديده، فما هكذا تعامل الوعود الربانية والبشريات النبوية، خصوصًا تلك التي بغير تعيين وتحديد وقد جاءت على التراخي، صحيح أنه ما دخلت السنة السابعة إلا وقد ظهرت الروم على فارس، وتحقق موعود الله، وآمن خلق كثير بعد تلك الآية والنبوءة القرآنية المتحققة، لكن ما يعنينا هنا أن أبا بكر كان قد وعى الدرس.

تمر الأعوام ويأتي موقف الحديبية، ويعلن وعد نبوي آخر بالاعتمار، ويتبشر المسلمون، وتتهلل أساريرهم، ها قد حان الوقت لنرى بيت الله الحرام وكعبته المشرفة من جديد، ها قد آن الأوان لنلبي النداء ونهل محرمين مكبرين مهللين ولنطوف بالبيت العتيق، ونسوق الهدي، وتتسابق قلوبنا لتهفو إلى أم القرى.. لكن جاء المنع، وعاند أئمة الكفر، ثم كان الصلح في الحديبية.. لا عمرة إذن هذا العام!

– «أليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟».

هكذا صاح الفاروق عمر في صاحبه ورفيق كفاحه الصديق.. ألم يعدنا رسول الله ﷺ أن نأتي البيت محرمين محلقي رؤوسنا ومقصرين؟ فيجيب بيقين الواثق الذي وعى الدرس، وفهم كيفية التعامل مع الوعود والبشريات: بلى، أفأخبرَك أنك تأتيه العام؟

– لا.

أجاب عمر نافيا التحديد.. هنا صدع بها أبوبكر بحسم لا يساوره الخلل ولا يأتيه الملل ولا الزلل: «فإنك آتيه ومطوف به».. وهكذا يعامل الوعد.. تصديق ويقين ولو بعد حين. كم من وعد أطلق في القرآن بتمكين المؤمنين وعز الموحدين.. لكن هل قيل: متى؟

﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾

(القمر:٤٥) وعد قاطع لاشك فيه، لكن متى هو؟

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم:٤٧) لكن متى هو؟

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف:١٢٨) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٥) ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ (الصف:١٣) متى هو؟!

العلم عند الله، والتكليف: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:٢٣٣). إن وعود الله ينبغي أن تصدق، وواجب المؤمن تجاهها أن يوقن بها، وأن يبشر ويستبشر؛ بل واجب الوقت عند البلاء والكرب أن يبشر المؤمنين والصابرين والمخبتين والمحسنين ويثبتهم ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (البقرة:١٥٥).

لكن إياك أن تتكلف وتتقعر وتقطع وتجزم بما لم يحدده الله جل وعلا، إياك أن تتألى على غيب، أو تُضيق واسعًا، أو تقطع بما لا تعلم.. التبشير يكون مطلقًا كما علمنا الله وعلمنا رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإن الاستثناء لهو التحديد بزمان أولشخص معين.. إن موقف النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مع سراقة بن مالك ووعده شخصيًّا بسواري كسرى ليس هو الأصل، إنما هو آية وبشارة استثنائية، لكن جل الوعود القرآنية والنبوية تأتي بصيغة الإطلاق الزماني والعيني، مثال ذلك وعده لخباب بن الأرت بتمام هذا الأمر، لم يذكر له متى يتم الله هذا الأمر، لكنه سيتم، ولقد صدّق خباب وصدّق المؤمنون، ودائمًا ما كانوا يصدقون حتى في أحلك ا لظروف وأقسى اللحظات، لقد كان شعارهم دومًا كشعارهم يوم رأوا الأحزاب وزلزلوا زلزالًا شديدًا، فقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب:٢٢).. إنه يقين لا يهتز في زلزال البلاء، وتصديق لا يرتجف بين رياح الأنواء، وتسليم لا يذوب في أتون المعارك ﴿إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ (يونس:٥٣)، عقيدة ثابتة لا تتغير ولا تتلون ولا تتبدل بتبدل ا لظروف والمؤثرات، وفارق من أعظم الفوارق بين المؤمن الصادق والمنافق الكاذب، فهذا الأخير لا يصدق إلا ما تلمسه يداه ولا يوقن إلا بما يراه، لذا تجده متربصًا، إن جاءت الريح في مصلحته ركبها، وأمعن في الانتفاع منها، وإن جاءت بما لا تشتهي سفنه شكك وكذب، وكان لسان حاله ومقاله كمن قالوا يوم

الأحزاب: ﴿... مَّـا وَعَـدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُـولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الأحزاب:١٢).

أمـا المـؤمن فاعتقـاده بمعـزل عـن مـصلحته العاجلة، ويقينه منفصل عن أهوائه وشهواته الآنية، وحيث إنه لا ارتباط بين المتغيرات وبين ما يصدقه، لـذلك تجد منحني اليقين والتصديق، والأمل لديه ثابت، سواء رأى أو لم ير ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّـكَ بَعْـضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّـكَ فَإِنَّمَـا عَلَيْـكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ (الرعد:٤٠).

الاحتمالان قائمان إذن.. أن ترى.. أو لا تعيش لترى، لكن التصديق ليس خاضعا للاحتمال ، وقد وُعدت خديجة بين المؤمنين، لكنها ماتت في الشعب ولم تشهد أي فتح أو نصر، ومات مصعب وحمزة في أحد دون أن يريا تمكينًا أو فتحًا لمكة، ومع ذلك ظل اليقين وظل العمل والثبات والتصديق بموعود الله حتـى إدراكـه أو المـمات، وهكـذا تُعامـل ا لوعـود الربانيـة.. يقـين وتـصديق بغـير اشـتراط أو تكلـف تعيين، وهذا اليقين هو الذي يهون به الله على المرء مـصائب الحيـاة، ويعينـه عـلى تقلبـات الأحـداث، ويعطيه الرصيد النفسي الذي يدفعه لإكمال الطريق دون اسـتعجال الثمـرة أوالتملمـل أثنـاء طريقهـا.. تأمل حال نوح عليه السلام.. ألف سنة إلا خمسين عامًا يتعرض للسخرية والإهانة والتكذيب، ومع ذلك يكمل دون تململ أوتأفف أو استعجال.. إنه اليقين والتصديق، وكذا حال إخوانه الأنبياء.

إن من الأنبياء من يأتي يوم القيامة وليس معه إلا رجل أو رجلان، ومنهم من يأتي ليس معه أحد، ومع ذلك فالتصديق كما هو، واليقين ثابت، والعمل مستمر.. اليقين هو الذي يعين ا لمرء على كل عمل من أعمال الدين، لأنه يثق أن هناك ثمرة إن لم يدركها في الدنيا فسيدركها غيره، وسيدرك هو ثمرة الآخرة وهي خير وأبقى من هنا.. إن قامت القيامة وفي يده فـسيلة فـسيغرسها.. لـن يـرى ثمرتهـا، ولكنـه سيغرسها، لأنه مصدق موقن أن هنالك وعدًا، وأن وعد الله حق، وأنه لا يخلف الله وعده، وهكذا في وعـود نـصر الأمـة وتمكينهـا، بـشرط ألا يتقـول المـرء على الله، ألا يحدد ويشترط أو يسمي أجلا لم يُسمَّ، وألا يـستعجل، فالميعـاد غيـب مطلـق لا يعلمـه إلا الله، بينما الوعـد حـق قطعـي وقـول إلهـي، ومـن أصدق من الله قيلا، واليقين في هذا الحق والثقة في هذا القول عقيدة ثابتة راسخة ﴿فَٱصْـبِرْ إِنَّ وَعْـدَ ٱللَّهِ حَـقٌّ ۚ فَإِمَّـا نُرِيَنَّـكَ بَعْـضَ ٱلَّذِى نَعِـدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (غافر:٧٧).

* * *

سنة الزوجيَّة بين إعجاز الإشارات القرآنية وروعة الحقائق العلميَّة

بقلم: الدكتور/ محمد عبد اللَّه الشرقاوي

كَوَّنَ الله عز وجل هذا الكون، وشاده وألزمه سننًا ضابطة، وقواعد هادية وقوانين ثابتة، ومن ثم فهو خلو من الجزاف والخبط والاعتباط، ومن بين هذه السنن التي ثبّتها الله في هذا الوجود، وثبت الوجود بها: سنة الزوجية، وهي موضوع تأملنا في هذه السطور التالية إن شاء الله.

لقد حفل الكتاب العزيز بآيات عديدة تفصّل القول وتوضحه في سنة الزوجية، يقول عز من قائل:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات:٤٧-٤٩).

ويقول سبحانه:

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (يس:٣٦).

فمن الآية الأولى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ نفهم أن سنة الزوجية أو قاعدتها وقانونها، سنة عامة شاملة لجميع الخلق، فكل شيء في هذا الكون – والإنسان شيء، والحيوان شيء، والنبات شيء، والجماد شيء، وأشياء متنوعة متعددة، لا يعلمها إلا خالقها عز وجل – أبدع على قانون أو سنة الزوجية، وسبحان الخلاق العليم!!، ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (يس:٣٦).

فبناء الكون على قاعدة الزوجية (الثنائية) آية من آيات الله تعالى، القائل:

﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ (فصلت:٥٣).

فمخلوقاته أومفعولاته عز وجل – فيما يذكر ابن القيم – من أدل شيء على صفاته، وعلى صدق ما أخبرت به رسله عنه، فالمصنوعات أو المخلوقات شاهدة تصدق الآيات المسموعات (الفوائد لابن القيم ص ٢١) أي أن ما في هذا الكون، وهو كتاب الله المجلوّ المصنوع، من حقائق ثابتة، يتوافق تمامًا ويتطابق مع ما في كتاب الله المتلو المسموع، فهذه آيات الله المصنوعة، وتلك آياته المسموعة.

ويجيء العلم الحديث المؤسس على الملاحظة والنظر أو المشاهدة العلمية والتجارب؛ ليكشف عن جانب من أسرار هذه المسألة، فقد اكتشف العلماء

في مجال علم الأحياء أو الـ: Biology بقسميها، أعني (عالم الحيوان، وعالم النبات) نظاما دقيقا يدعو إلى الدهشة، والوقوف أمام عظمة الإبداع الإلهي وروعته بكل خشوع وإجلال له سبحانه.

إذ اكتشف العلماء التجريبيون أن كل شيء في هذين العالمين (الحيوان والنبات) مبني على أساس زوجي ثنائي، فيتشابه الإنسان والحيوان والأسماك والطيور والحشرات، وكل الكائنات الحية، التي أحيط الإنسان بها علمًا، والنبات بأنواعه وأشكاله في خاصية الزوجية، فلا يتم التلقيح الجنسي إلا إذا اجتمع العامل أو الجانب ا لذكري، بالعامل أو الجانب الأنثوي.

فلا بد من هذا الاجتماع الزوجي؛ إذ الزوجية في عالمي الحيوان والنبات سنة إلهية، والسنن ثابتة لا تتبدل ولا تتحول، ولقد هيأ الله سبلا شتى ووسائل عدة لهذا الاجتماع الزوجي، ففي النبات مثلًا: تقوم الحشرات والنمل والنحل والفراش بوظيفة هامة جدًا في نقل اللقاح وإحداث أو إتمام التزاوج، وكذلك الهواء يقوم بنقل اللقاح إلى مسافات ومساحات بعيدة جدًا تدعونا إلى الدهشة والإعجاب.

ويسند الخالق المبدع سبحانه هذه السنة الشاملة إلى ذاته الجليلة، فيقول:

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ (النجم:٤٣-٤٥).

ويقول سبحانه:

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ (القيامة:٣٦-٣٩).

ويقول تعالى:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ (الليل:١-٣).

أما الزوجية في ا لنبات، فقد جاءت في عدة آيات، يقول سبحانه:

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾ (طه:٥٣).

ويقول عز من قائل:

﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ (ق:٧).

ونكتفي بسوق هذه الآيات – فهي نماذج لمثيلات لها في كتاب الله العزيز – لأنه ليس من هدفنا الاستقراء التام، وننبه على أن نظام الزوجية يتعدى الحيوان والنبات ليشمل الجماد أيضا:

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ (الذاريات:٤٩).

ففي عالم الكهرباء والمغناطيس مثلًا، خلقت الأقطاب الزوجية: السالبة والموجبة، حيث لا يتم الفعل الكهربي، ولا يقوم النشاط المغناطيسي، إلا في ظل الزوجية القائمة على السلب والإيجاب، وكذلك التفاعلات الكيميائية تتم – كما هو معلوم – وفق نظام الشحنات الزوجية أيضًا!!

هذه إشارات توضح الزوجية في عالم الجماد،

ولا شك أن هنالك جوانب تؤكد وتعمق هذا المعنى،.. ويكشف عنها العلم تباعًا، وصدق الله إذ يقول:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣).

وتأمل – أخي الكريم – بدء هذه الآية الكريمة بحرف السين، وهي تفيد الاستقبال، والاستقبال عملية متصلة دائمة لا تتوقف إلى قيام الساعة، وعلى ذلك يبقى الاستكشاف والتعرف على آيات الله في الكون، أو رؤية آياته، عملية موصولة كذلك.

ويقوم هذا الكون – كما هو في حسبان العلماء اليوم – على نظام الذرة ATOM ، فهي وحدة بنائه، وكان للظنون إلى عهد غير بعيد، أنها الجزء الذي لا يتجزأ، أو الجوهر الذي لا ينقسم، وأنها أصغر شيء في الوجود.

هذه الذرة، التي هي الوحدة الأساسية لبناء الكون مؤلفة من زوجين: الإشعاع السالب، والإشعاع الموجب، يتزاوجان ويتحدان، وعندما شطرت هذه الذرة أو قنتت وجد أن بها «الإلكترونات» التي تطوف حول «النواة» التي تحتوي – فيما تحتوي عليه – على «البروتونات». وتحمل الإلكترونات السابحة الطائفة: شحنة كهربية سالبة، وتحتوي البروتونات الساكنة في النواة: شحنة كهربية موجبة، فيحدث التوازن بين الشحنتين الثنائيتين المتقابلتين، فلا تنفجر الذرة على نفسها، وبتوازنها يتوازن الكون كله، فلا ينفجر على نفسه؛ لأن الذرة هي وحدة بنائه كله كما تقدم، ومعنى ذلك أن الكون كله يقوم على هذه الثنائية.

ليس هذا فحسب، لكن لا حظ العلماء ألوفًا من الثنائيات النجمية.. تتألف من نجمين مرتبطين متزاوجين، يشد بعضهما بعضا ويرتبط به ويطوفان معًا.. ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ (يس:٣٦).

وهذه التسبيحة تنطلق في أوانها.. وفي موضعها.. وترتسم معها حقيقة ضخمة من حقائق هذا الوجود.. حقيقة وحدة الخلق.. وحدة التكوين والقاعدة، فقد خلق الله الأحياء أزواجًا، النبات فيها كالإنسان، ومثل ذلك بقية المخلوقات.. «وإن هذه الوحدة لتشي بوحدة اليد المبدعة التي توحد قاعدة التكوين، مع اختلاف الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس والخصائص والسمات في هذا الكون الذي لا يعلم علمه إلا الله».

وهكذا يتجلى إعجاز الإشارات القرآنية الكريمة – في مسألة الزوجية – مع روعة المكتشفات العلمية الحديثة الصادقة القاطعة، بعيدًا عن الفروض والنظريات التخمينية، التي قد تصدقها التجارب وقد لا تصدقها.

وهكذا نفيد من الحقائق ا لعلمية الثابتة والمبرهن على صحتها في توسيع فهمنا لكتاب الله وتعميقه، ولاريب أن كثيرًا من المفسرين – كما يرى – قد فسروا الآيات الخاصة بسنة الزوجية في حدود معارفهم وثقافتهم، بما لا يستوفي أبرز معانيها وأقرب أغراضها ومراميها.

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

وقد يكون للقلم زئير تزدري عنده زئير الأسد، فيقول الشاعر:

ولأقلامه زئير مهيب

يزدري عنده زئير الأُسُود

أرغبتهم عن القنا قصبات

مغنيات عن كل جيش مقود

والقَرَاطِيْسُ خَافِقَاتٌ بأيد

يهِمْ كَمَرَهوبِ خَافِقَاتِ البُنُوْدِ

هذا، وقد يكون القلم أداة هدم وتخريب لا لغير صاحب القلم؛ بل يجلب على صاحبه ويلات وخسائر في الدنيا والعقبى؛ فإن القلم مسؤولية كبرى وأمانة جسيمة لايقدر على تحملها من يبصبص بذنبه لأصحاب المال والجاه والسلطة دون إحقاق الحق وإبطال الباطل، ومن يدخل عليهم فيصدقهم على كذبهم ويعينهم على ظلمهم بقلمه وسنانه ولسانه، ومن يتطفل على موائدهم و يتخذ القلم سببًا من أسباب العيش الرغيد والحياة النعيمة له، وكذلك من يحول نفسه بوقًا لفرد أو جماعة أو سلطة أو فكرة من الأفكار التي لاتأتي بخير، عن وعي أو غير وعي؛ فإنك لن تعدم في الناس في عصر من العصور أبواقًا وطبولًا، يقول شاعر العرب أبو الطيب المتنبي (٣٠٣-٣٥٤هـ/٩١٥-٩٦٥م):

إذا كان بعضُ الناس سيفًا لدولةٍ

ففي الناس بوقاتٌ لها وطُبولُ

وقد يكون القلم في يد صاحبه أشبه بالخنجر في يد الصبي لايدري أن يستخدمه، فلا يأبى أن يطلق له العنان في أعراض الناس وخاصةً العظماء والسلف الصالح رحمهم الله. ولايرى غضاضة ولايتوانى عن كيل السب والشتم والقذف جزافًا وعلى غير بصيرة، لشخصية انحنت ظهرها، و بذلت مهجتها وضحت بنفسها في سبيل العلم والثقافة.

وهذه الشريحة من الناس لاهم لها إلا أن ينتشر صوتها، ولو في محيطها المحدود، و يُذكر موقفُها ولو عند المطبلين لها والمتعاطفين معها، ولا شغل لها إلا أن تتتبع عورات الناس، و تتعقب زلاتهم، وتلهث وراءها- إن كانت لهم عورات وزلات- فإنها تجد من القراء من لايتورع عن تصديق كل ما يطرق سمعه أو يقع

عليه بصره؛ فإن الناس- كما قال علي رضي الله عنه- ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق.

وهذه الشريحة من الناس إذا أمسكت بقلم- إن قدر لها- لم تخط يمينها إلا ما فيه شر وفساد، وطعن، وهمز ولمز، وسخرية وازدراء، وتخبط أقلامها خبط عشواء في أديم الأمة، والاستهزاء بأهل العلم والفضل فيها، والنكران لجميلها، والحط من شأنها، واحتقار أعمالها وعبقرياتها، بجمال العرض وسحر الأسلوب، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [البقرة:٢٠٤] في محاولة لزعزعة الثوابت، وزلزلة الوقائع، و إبطال الحق وإحقاق الباطل.

ومن المضحكات المبكيات - وشر البلية ما يضحك - أن ذهب فريسة لمثل هذه الشريحة لا المغرضون والانتهازيون فحسب؛ بل حتى بعض من فيه خير وصلاح وحسن نية عن غرة، فاستمع لها وأصغى بأذنه إليها، وانساق وراء كلامها المعسول، وقولها المزخرف.

فالحذر والحذر عند استخدام القلم، ولتكن الكلمة الصادرة بها تبني جسورًا ويضيق فجوة، وتنشر قيمة الاعتراف بالجميل، وتعزز الاحترام، وتبث روح الإخاء والتحابب في وقت يكثر فيه الشائعات وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وتحريف الغالين، حتى يلعب القلم دوره المنشود في بناء الفرد وإصلاح المجتمع، وصنع الحضارات، ورسم خطوط المستقبل المنير.

ولله در القائل:

وَما مِن كاتِبٍ إِلا سَيفني
وَيَبقي الدَهر ما كَتَبَتَ يَداه
فَلا تَكتُب بِكفك غَير شَيءٍ
يَسرك في القِيامة إِن تَراه

فاتق الله يا صاحب القلم فيه، ولاتجرده من غمده إلا بإخلاص النية وفيما يرضي ربك؛ فإن القلم شاهد لك أو عليك، و﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:١٩].

* * *

القلم سلاح ذو حدين

القلم من نعم الله تعالى الكبرى، امتن به الله تعالى الإنسان، وهو سلاح ذو حدين، بإمكانك أن تستخدمه فيما يعود بالنفع عليك وعلى أمتك، وعلى كل من حولك من بشر و حيوان. وهو ناقلة المعرفة ومطية الفكر وأداة الخلود والبقاء؛ فإن القلم أكثر تخليدًا لصاحبه في أعقاب موته من أي أداة أخرى، فهؤلاء العلماء البارزون في المجالات العلمية المختلفة الدينية والطبيعية وغيرها هل خلدتهم إلا أقلامهم ويراعهم، الذين دبجوا بها بنات صدورهم، و ربما كان هذا السيف الفكري أشد تأثيرًا ووقعًا من السيف الحديدي، ويقول أبو بكر محمد ين يحيى الصولي المتوفى (٢٦٧هـ/٨٨٠م= ٣٣٦هـ/٩٤٧م) في أدب الكتاب (ص ١١٦):

إني إذا ماضي اليراع بلدا ... وحار في ميدانه وعردا

لمصلح من حده ما أفسدا ... بمدية كريمة من المدى

كادت تفل الصارم المهندا ... تهدي إلى الأقلام حينًا وردى

كأنما يوقع منها بعدى ... وهي بما تفعل تولينا يدا

لأنها تقيم منها الأودا ... حين ترى الآكل منها مبردا

يفوف القرطاس تفوف الردى ... بلحمة من البيان وسدى

(البقية على ص٥٤)

أبو عائض القاسمي المباركفوري